رحلة بين عصرين

توفيق الحكيم



رحلة بين عصرين

توفيق الحكيم

رحلة على جناح عصفور

فكرة هذه الرحلة قديمة . لقد عرض على القيـام بها منذ سنوات ، وكنت أتكاسـل وأتخاذل وأؤجـل التنفيذ من عام الى عام مخترعا شتى الحجج ، الى ان فكرت أخيرا فى هذه المرحلة من عمرى . وايقنت ان كل عام يمضى تزداد بى السن تقدما والصحة ضعفا . فلن احتمل بعدئذ السفر . وحزمت أمرى وقمت أنفض الغبار عن همتى .. لكن ما هو المطلوب منى .. ؟ قيل لى الامر بسيط . انها رحلة انطباع عابر لاول رحلة لك الى اوروبا قمت بها فى المـاضى . ولرحلة اليوم التى تقوم بها فى الحاضر .. ولكن الامر ليس سهلا فقد مضى نحو نصف قرن بين الرحلتين ... فصـور الماضى كادت تزول من رأسى . اما الحاضر فانى أواجهه بنفس شاخت وفقـدت الكثير من مرح الشباب وانطلاقته وحماسته ودهشته .

ولكنى ساحاول . وابدا فاعتصر راسى لاستخلص منه ذلك الشريط من الذكريات ، الذى اخشى ان يكون قد بهت ، وأحلق من فوق جناح عصـــفور لاشـــمل بنظرتى السريعة ، ما كان وما يكون ، أما ما كان فهو يوم فى مطلع العشرينات من هذا القرن . يوم صيف . شهر يولية فيما اذكر . وضعت قـدمى على سلم باخرة ، تذهب بى الى فرنسا . لم تكن الطائرات بالطبع قد استخدمت فى السفر . ولم أكن قد ركبت البحر قط . كانت الباخرة تسمى « الجنرال متزنجر » . جنرال فى الجيش الفرنسى طبعا . ماذا صنع هذا الجنرال لتسمى الباخرة باسمه ؟ لا ادرى . كل ما نجده عنه فى القاموس الفرنسى انه ولد عام ١٨٤٢ ومات عام ١٩١٤ . اى أنه لم يحضر حتى الحرب العالميـــة الاولى . وربمـــا حضرها ومات عند اول طلقة . وقد علمت انهم أعدموها او فكوا اجزاءها بعد تلك الرحلة . ركبت بالبداهة فى الدرجة الثانية . لانه لم يكن بهـــا درجة ثالثة . وكانت الايام تبدو طويلة رتيبة مملة على ظهر السفينة . وامامنا خمسة أيام طوال لا ندرى كيف نقضيها . وعلمنى احد رفاق السفر لعبـــــة « الدومينو » لقتل الوقت . وهذه الالعاب لا تدخـــل عقلى . وكثيرا ما حاولوا تعليمى لعب « الطاولة » ولم يثمر التعليم . ولكن سأم السفر الطويل فى بحر لا يتغير أرغمنى على هذه اللعبة ، فلعبتها مع الرفاق حيثما اتفق وهم يضحكون من لعبى ، الى أن اقتربنا من الشاطىء فنسيتها ولم أعد قط اليها فى حياتى ..

ووصلنا آخر الامر الى ما يطلق عليها « مدينـــة النـــور » .

فبماذا شعرت ؟ أنا القادم المشتاق ؟ ..

ليس سهلا أن استعيد ذكرى يوم مضى عليه ما يقرب من نصف قرن .. يوم وطئت قدمى أرض باريس .. لم يبهرنى أول الامر منظر هذه المدينة التى يسحرنا مجرد اسمها .. ما من رواية قرأناها فى الصغر الا وفيها وصف لاضواء باريس يلهب خيالنا حتى كدنا نتصور بيوتها طوبة من فضة وطوبة من ذهب . لا شىء من هذا رأيته . انما هى بيوت عادية رمادية اللون مائلة السطوح . والمطر يتساقط رذاذا . والسماء مكسوة بغمام ابيض وهواء بارد لافح ، لكنه منعش ، بدد فى الحال اثر الارق فى تلك الليلة التى قضيتها فى القطار ، من ميناء مرسيليا الى باريس . ليلة لم أستطع النوم فيها لسبب شاءه سوء حظى . فقد كان معى اشخاص عديدون ازدحم بهم ديوان العربة . وجاءت جلستى ملاصقة لصبى فى العاشرة الى جوار أمه . كان كثير الحركة زائغ البصر دائم الهمهمة . واطفأ بعض المسافرين النور الساطع ، واظلم المكان الا من نور ازرق خافت ، نام عليه الجميع . وعلا الغطيط . الا ذلك الصبى المضطرب بجوارى . ولاحظت أمه ضيقى به ، فأومأت الى باشارة ثم بهمسة فهمت منها ان هذا الصبى مصاب بلوثة جنون ، وانها بسبيل ادخاله مصحة او مستشفى للامراض العقلية .. فما ان عرفت ذلك حتى وثبت لتسوى مذعورا من ديوان العربة الى الممر الضيق ، وصرت طول ليلى اتمشى او اسند رأسى الى نافذة .. وقد رأيت ذلك أسلم لى من البقاء بجانب صبى فاقد العقل، قد يهيىء له جنونه أن يدخل اصبعه فى عينى ، أو يقرض بأسنانه أذنى .. وانتظرت زوال الليل بصبر

نافذ . ولاح الفجر . ورأيت لافتات عليها كلمة « باريس » . فأيقنت بقرب الوصول . ولم يمض بالفعل قليل حتى دخل القطار محطة باريس . وأنا شبه مخدر من التعب . وجاء حمال فحمل حقائبي الى سيارة أجرة ، طلبت من سائقها أن يذهب بي الى فندق في الحي اللاتيني . وجعلت طول الطريق أتأمل الاشجار الباسقة على جوانب الشوارع شديدة الاخضرار .. اخضرارها يبهر العين .. عين مثلي على الاقل فأنا لم تألف عيناي الاخضرار . تغتسل برذاذ المطر باستمرار .. كأنها حور حسان تحت دش حمام .. ان الطبيعة هنا تحب الشجر كما تحب الام طفلها .. فهي تواليه بالتنظيف كل صباح . هنا كل شيء نظيف . والماء يجري دائما من تحت الافاريز الى بالوعات غير مرئية . والجو بدا في نظري فضي اللون .. كل شيء من حولي الان في لون الفضة ولون الزمرد . ان الطبيعة هي التي تتولى تزيين باريس .. وأخذتني اغفاءة في السيارة لم أفق منها الا أمام فندق وقفنا ببابه . كان اسمه « فرنسا والشرق » . وهناك انزلوني في حجرة بالطابق الرابع صعدت اليها بسلم ضيق . لم تكن المصاعد بالكثرة التي نعرفها اليوم . كانت الحجرة صغيرة ، ولكنها نظيفة . مفارشها بيضاء ناصعة .. لم اعتد مثل هذه المفارش الناصعة شبه المنشاة .. فخجلت أن ألقي بجسمي المترب عليها فجلست في استحياء على مقعد صغير من الخشب ونصحني مدير الفندق ان استأجر الحجرة بالشهر لا بالليلة ، ما دامت اقامتي طويلة ، فان هذا اوفر لي . وحسب لي الاجر الشهر بأربعمائة فرنك أي ما يقرب وقتذاك من أربعة جنيهات . وهو

مبلغ أستطيع دفعه . فإن مقدار ما سيصلني شهريا من مصر لمعيشتي في باريس هو عشرة جنيهات . الأمر الوحيد الذي ضايقني هو عدم وجود حمام بالفندق كله . وقالت لي خادم الطابق العجوز أن هذا حال أكثر فنادق الحي ، وعلى من يريد الاستحمام أن يذهب الى حمام السوق . وعجبت أن تستحم هنا الاشجار بدش حمام سماوي ، ولا يجد نزلاء الفنادق دش حمام عادي ! .. وماذا عساى أصنع للوضوء ؟ ! انى معتاد الصلاة .. وقد جئت من بلادي الى أوروبا والايمان ملء قلبي ، وأنا قابض على ديني كالقابض على الجمر ! .. وكيف السبيل الى التطهر اذن والمرحاض هنا ليس به ماء ؟ ! . ورأيت بجوار فراشي قارورة ماء للشرب مغطاة بكوب زجاجي ، فصرت قبل كل صلاة أحمل هذه القارورة معي الى المرحاض . ولحظتني الخادم العجوز وأنا أذهب وأجيء في اليوم مرات عديدة حاملا القارورة فسألتني في دهشة : « أخبرني يا سيدي لماذا تحمل الماء دائما هكذا ؟ ! . هل تخشى العطش وأنت تسير ؟ . اننا هنا لسنا في الصحراء ؟ ! » .

. . . . .

في اليوم التالي سرت في الحي اللاتيني على غير هدى . كان همي الاول أن أتخير مطعما للغذاء .. ولكن المطاعم هنا كثيرة تملأ الشوارع . وعلى أبوابها بطاقات الطعام والاسعار .. ما هذا الرخص ؟ ! وهذا الخير الكثير ؟ ! هذا مطعم يقدم وجبة غذاء كاملة من لحم وخضر وفاكهة وخبز وزجاجة نبيذ أو مياه معدنية بخمسة فرنكات ، أى نحو خمسة

قروش مصرية ! .. اني هنا لن اشكو الجوع ابدا ..
لكن الاعجب هو غذاء العقل ! .. ها هي ذي مكتبة كبيرة قد عرضت فوق الافريز مجموعات من المجلدات القديمة التي أعرف قيمتها بأزهد الاثمان . كل مجلد منها بفرنك ونصف الفرنك ، واحيانا ثلاثة فرنكات لمجموعة من مسرحيات موليير وكورني وراسين وفولتير .. ولكني قبل كل شيء احتاج هنا الى قاموس ودائرة معارف . واقتنيت من هذه المكتبة معجم لاروس الكبير في جزءين ضخمين بما لا يزيد عن مئة فرنك . وهو ثمن زهيد لهذه الجامعة المتنقلة تحت ذراعي ..
وكان هذا أهم شيء صنعته في يومي .. وفي طريق عودتي الى فندقي لمحت في حانوت للحلوى صندوقا كبيرا من البسكوت الفاخر المحشو بالزبد والمربى ، فوقه بطاقة بسعر اذهلني رخصه ، فمثل هذا البسكوت ما كان يخطر لي في مصر ان أقدم على شرائه ..
دخلت الحانوت وخرجت بالصندوق . وفي حجرتي وكانت لها شرفة تطل على الشارع ، جلست واضعا الصندوق في حجري ، ولم أفطن الى نفسي الا وقد اتيت على كل ما فيه من هذا البسكوت اللذيذ ، وأنظاري لاهية الى استطلاع مافي الشارع من حركة وما حولي من منازل .. واستلفت نظري مبنى في مواجهتي له مهابة ، فسألت عنه الخادم فقالت انه « الكوليج دي فرانس » . ولم تزد . ولم افهم منها المقصود . فلجأت الى جامعتي المتنقلة « معجم لاروس » وكشفت عن كلمة « كوليج » فعثرت على ضالتي في هذه السطور : « كوليج دي فرانس معهد أسسه في باريس فرنسوا الأول عام ١٥٣٠ ميلادية ، خارج نطاق الجامعة ، بناء على مشورة جيوم بوديه .

والدراسة فى هذا المعهد تشمل كل مجالات المعرفة الانسانية . والمحاضرات داخل هذا المعهد مفتوحة للجميع ، ولا يعقد فيه أى امتحان . فهى دراسات تكميلية تطلب لذاتها » . ولم اكن أعرف شيئا عن جيوم بوديه هذا الذى أشار بانشاء مثل المعهد ؟ .. من هو ؟ وما صناعته ؟ . ورجعت فى الحال الى جامعتى معجم لاروس ، وبحثت عن هذا الاسم وعلمت : « انه فيلسوف فرنسى (١٤٦٧ — ١٥٤٠) وواحد من أوائل المتخصصين فى عصره فى الثقافة الاغريقية . وقد توسل بما له من حظوة لدى الملك فرانسوا الاول لاقناعه بانشاء معهد « الكوليج دى فرانس » .. وغرقت فى التفكير .. يا للعجب ! .. بل يا للرقى ! .. رقى النفس والعقل .. ان يطلب الانسان المعرفة لذاتها .. للسمو بها .. لا بغية نجاح فى امتحان أو حصول على شهادة او وصول الى وظيفة ! .. ربما كان لدينا نحن أيضا شىء كهذا فى يوم من الايام . بل ربما كان هذا مستوحى من أقدم جامعة فى العالم وهى « الازهر » .. يخيل الى أن الازهر أيضا فى أوج ازدهاره كان مفتوحا هو الاخر لكل الوان المعرفة فى عصره ، لكل من يطلبها لذاتها . لا ابتغاء منفعة عاجلة من شهادة امتحان للارتزاق والامتهان . ان الشيخ الاستاذ وحوله الطلاب ما كان يجمعهم ويربطهم غير حب العلم وحده . ما كان هناك جبر ولا الزام . من حضر حضر ومن غاب غاب ، والاستاذ فى مكانه يفرز علمه كما يفعل النحل الدؤوب دون نظر الى من يتلقى العسل . ويكفى عقل واحد يواظب وينتفع ويتلقى عنه مشعل المعرفة ليبقى دائم التوقد متصل الاشعاع ..

لم اكن بعد مهيأ من حيث اللغة والثقافة لافهم وانتفع بمحاضرات مثل هذا المعهد الحر .. كان يجب ان اقرأ وان أغرق طويلا فى شتى الكتب اولا .. وها هنــا الكتب زهيدة الثمن . وصرت بالفعل ابدا أول ما ابدأ عند نزولى الى الشوارع بالمرور على المكتبات اغرف منها واحمل الى حجرتى .. الى ان خطر لى الذهاب الى حى مونمارتر .. هذا الاسم الذى طالما سمعت به من قبل ، فقترنا بأســماء الفنــانين البوهيميين والاوباش وأهل الفجور .. أما الاوباش وأهل الفجور فحاشا لله . فأنا ولله الحمد ما زلت محتفظا بروحى الدينى واما الفن فهذا هو الذى يهمنى . انى أريد انا أيضا ان أكون هنا فنانا بوهيميا ، وقد كنت كذلك فى مصر قبل مجيئى يوم كنت أتسكع من ملحن روايتى كامل الخلعى وأصدقائه المتصعلكين فى شارع محمــد على .. لمــاذا لا أذهب اذن الى مونمارتر وأعيش هناك ؟ ! . ونهضت ذات صباح وحزمت أمتعتى وركبت سيارة اجرة وقلت للسائق : الى مونمارتر .. وفى مداخلها أبصرت لافتة عليها كلمة فندق ، فبــادرت اطلب من السائق الوقوف ، ودخلت بأمتعتى توا الى الفندق ، فاستقبلنى مديره ومساعده . فلم أضيع وقتا وقلت لهما على الفور : « أريد حجرة بالشهر . لان اقامتى عندكم مستديمة » .. فضحك الرجلان ضحكا اثار دهشتى . ولمــا بدا لهما أنى لم افهم ، اشارا الى سلم الفندق فأبصرت رجلا وامرأة يصعدان ورجلا وامرأة يهبطان .. ولم يظهر على مع ذلك علامات الفهم ، وعندئذ طلب منى المدير ومساعده أن أقرأ رقعة معلقة بالحائط قرب الباب تفيد أن الحجرات فى هذا الفندق تستأجر بالســاعة .. عندئذ فقط أدركت

انى وقعت فى فنــدق مشبوه للمواعيد الغراميـــة ، لا للاقامة المادية . فانصرفت خجلا وانا أتعثر فى أمتعتى ، والرجلان يضحكان منّى ويسخران ويرددان : « بالشهر ! .. يقول بالشهر ! » ..

وعدت ادراجى الى قواعدى بفندق «فرنسا الشرق» فى الحى اللاتينى فهو حى على الاقل أعرفه . وأعرف فيه موضع قدمى . ومرت الايام وانا ازداد به الفة . واتخذت لى فيه مقهى جعلته مكانى المختار . كان على ناصية الشارع الذى به جامعة السوربون . اسم هذا المقهى « داركور » . لم يعد له وجود الان . ولكنه فى ذلك العهد كان له شأن . وكان يؤمه القــادمون الغرباء من امثالنا . وفيه عرفت صديقا من اصدقاء العمر . فريد الشخصية عجيب الاطوار . لم ينقطع اتصالنا طول الاعوام الا بانتقاله الى رحمة الله . اسمه : « الدكتور سعيد » .. كان قد جاء من مصر ، لا للدراسة فى جامعة ولكن للتمرن العملى على الابحاث البكتريولوجية فى معهد باستور .. حكيت له ما حدث لى فى مونمارتر فضحك هو الآخر . وســألنى عمن يخدمنى فى فندقى ، فلما قلت له انها خادم عجوز ، صاح مشمئزا : « اعوذ بالله ! . فى باريس وتخدمك عجوز ؟ ! .. قم يا شيخ واترك فى الحال هذا الفندق ! » ونصحنى بالانتقال الى فندقه . ولما سألته عمن يخدمه هناك قال : « رجل عجوز .. » فصحت بدورى : « اعوذ بالله ! » فابتسم وقال : « انتظر .. اصبر ولا تقاطعنى .. انه فعلا رجل عجوز ولكنه كنز من الكنوز ! » . وروى لى حكايته مع هذا الرجل .. قال انه نزل هذا الفندق ليلا . وفى الصباح استيقظ

ودق الجرس طالبا الفطور ، وهو يمني النفس بخادمة حسناء تدخل عليه . فلما دخل عليه هذا الرجل العجوز بشواربه صاح : « اخص على هذا الصباح الهباب رجل بشوارب اصطبح بوجهه فى باريس ! » وقام من فوره يحزم أمتعته ويترك الفندق . وفهم الرجل وابتسم . وأخبره ان الطابق الاعلى تخدم فيه خادم حسناء اسمها « جانيت » . والطابق الاسفل حسناء أخرى اسمها « زيزيت » فزاده هذا نكدا وقال: « وما الذى اوقعنى أنا فى هذا الطابق الملعون ، الذى يخدم فيه رجل بشوارب اسمه .. » وسأله عن اسمه ، فأجابه : « غليوم » . فقال له « انقل أمتعتى فى الحال يا غليوم الى فوق او الى تحت ! .. » فقال الرجل بابتسامة ماكرة : « لا داعى الى انتقالك ياسيدى اليس عندك زرار مخلوع فى قميصك لارسل اليك جانيت بالابرة والخيط كى تصلحهالك !. وهذه البقعة فى سترتك لابد ان تحدث ان لم تكن حدثت من اثر سقوط ملعقة مربة او زبدة او نحو ذلك ولابد اذن من ان ارسل اليك زيزيت لتنظفهالك ... ما رأيك فى كل هذا ؟ ! ... فانفرجت أسارير الدكتور سعيد وقال : هذا كلام معقول ! .. ووضع فى كفه خمسة فرنكات ضاعفت من همته ، وقال ان بالطابق الاخير حسناء ثالثة اسمها « انطوانيت » سيأتى دورها . وفعلا طلب صديقى وقد ادعى المرض من يدلك له جسمه فقال له غليوم ان هذا شغل انطوانيت ، وأسرع يناديها ... وهكذا اصبح غليوم هذا لصديقى كنزا من الكنوز . الا ان صديقى الطموح لم يكتف بهذا ، بل طمع ذات يوم فى المديرة نفسها . تلك التى تجلس فى صدر بهو الفندق بزهو وكبرياء . وكانت امرأة ناضجة

مليحة ، وفاتح كنزه الثمين غليوم فى أمرها . فصاح فزعا: لا يا سيدى الا هذه ! .. » فنفحه بسخاء ، وصديقى هذا كان يتقاضى مرتبا مجزيا باعتباره طبيبا مبعوثا من الدولة . فنشط غليوم بفعل المنحة السخية واتقد ذكاؤه وتفتق فكره ، فبادر الى ستارة النافذة الوحيدة فى الحجرة فجذبها جذبا فانخلعت .. وقال « سأنزل الى المديرة وأخبرها ان ستارة نافذتك مخلوعة وعليها ان تأتى لمعاينتها والامر باصلاحها ، فاذا دخلت حجرتك فعليك أنت بالباقى » .. وسألت صديقى الدكتور سعيد عما حدث بعدئذ ، فرفض أن يخبرنى واكتفى بأن قال لى : « فيما بعد أخبرك .. أما الان فان الاهم هو ان تأتى حالا الى هذا الفندق لننعم معا بفضائل هذا الكنز المدعو « غليوم » ! ..

ولم أبطىء بالطبع . فلم تمض ساعة او اقل حتى كنت أحمل أمتعتى الى هذا الفندق البهيج . وما كدت ادخل البهو حتى استقبلنى الصديق باسما قائلا : « اختر لك ما يحلو .. تسكن طابق جانيت أو طابق زيزيت أو طابق أنطوانيت ؟ » فقلت له « بل طابق غليوم وهو يوزع علينا الخيرات ! .. تحت اشرافك طبعا . وقد تركت لكرمك وسخائك مهمة المنح والعطاء باسمى واسمك ! .. » فقال : « أمرك ! .. ونادى غليوم وأمره بحمل أمتعتى الى حجرة بطابقه . وصعدت لانظم شأنى فى مسكنى الجديد ، على أن الحق بصديقى بعد قليل فى مقهى داركور .. وما أن استقر بى المقام فى حجرتى حتى نهضت أفتح حقائبى وأخرج ملابسى ثم موس الحلاقة وأحلق ذقنى أمام مرآة فوق مائدة عليها طست واسع من الخزف الملون وأبريق ماء كبير لغسل الوجه . فمثل هذه الفنادق

لم يكن بها فى ذلك العهد من أوائل العشرينات حنفيات الماء الجارى فى الحجرات كما هو العهد الان .. وما أن انتهيت من حلاقة ذقنى واعجبنى شكلى حتى بادرت الى زرار قميصى فخلعته ، ثم ناديت غليوم وأشرت له الى القميص قائلا : « الزرار انخلع ! » .. فقال : « لحظة واحدة يا سيدى » .. وانصرف سريعا وتركنى أمنى النفس برؤية جسانيت أو زيزيت أو أنطوانيت .. وعاد غليوم فعلا بعد لحظة . ولكن بمفرده . وفى يده ابرة وخيط . فصحت به : « ما هذا ؟ فقال متعابطا : « الم تطلب ذلك ؟ ! » قلت له : « بل طلبت جانيت أو زيزيت ! .. » فابتسم . لكنه عاد فتجهم وهرش رأسه الاصلع قائلا : « هو صديقك قال لك ؟ ! » فأجبته « طبعا » . فعاد الى هرش رأسه بلكاعة . وفهمت مراده وأسرعت الى محفظتى واخرجت منها خمسة فرنكات وضعتها فى كفه . فتهلل وجهه . ودب فيه حماس مفاجىء . وقال : « شكرا يا سيدى لحظة واحدة ! » وخرج مسرعا .. وجلست أنا على مقعد انتظر وكل انظارى الى باب الحجرة .. وتذكرت المحفظة فى يدى ففتحتها ونظرت فيها ثم أعدتها الى جيبى مغتما وقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وجعلت أقول لنفسى : « لعنة الله على العجلة واللهفة أما كان الأجدر انتظار صديقى سعيد ليتولى هذه الامور ؟ ! » ..

لم يكن هذا اللهو والعبث ليصرفنا عن النظر الى الوجه الآخر لباريس وجه العلم والمعرفة والحضارة . ويبدو أن هذه الدفعة كلها التى ارتادت أوروبا عقب الحرب العالمية الاولى وأوائل العشرينات كانت تدرك

بالغريزة ، دون تدبير أو تفكير أو تخطيط مسبق ، انها هى المنوط بها وضع أسس نهضة فكرية وعلمية سوف يقوم عليها البناء الحضارى لبلادنا فى ثلاثين أو خمسين سنة قادمة . وكان صديقى الدكتور سعيد من بين هؤلاء الرواد فى فرعه الذى تخصص فيه . وكان برغم عبثه هذا مجدا فى عمله وأبحاثه ، محترما بين زملائه من علماء المعهد ، الى حد انهم أرادوا ضمه اليهم بمرتب فى المعهد . ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته والابتعاد عن خدمة بلاده . وعلى الرغم من التحرر الفكرى الذى كان يحيط به والتعمق العلمى الذى كان يزاوله فان ايمانه الدينى كان راسخا لا يمكن زعزعته . وقد كنت مثله فى أول الامر . لم يكن الانغماس فى بيئة أهل الفن فى مصر بمؤثر فى العقيدة . على العكس ، ان الفنان دائما أقرب الى الايمان . ان حصولى على ليسانس الحقوق وتسجيل اسمى فى جدول المحامين واشتغالى بالمحاماة فى ذلك العهد الى جانب تأليف الروايات كان كفيلا أن يجنبنى كما جنب غيرى متاعب القلق الفكرى . ولكنى قطعت هذا الاتجاه الذى بدأت السير فيه بنفس مطمئنة لاحضر الى بلاد تضطرب فيها الافكار ويسودها القلق فى أعقاب حرب شملت العالم كله لاول مرة فى تاريخ البشر . كان من برنامجى أن أحضر لدكتوراه الحقوق الى جانب متابعتى لهوايتى الفنية . وقد اخترت القانون العام ، وهو أقرب الى الدراسات الانسانية التى تهمنى لاتصالها بالفن ، وهى تشمل الاقتصاد السياسى والتشريع الصناعى وتاريخ المذاهب الاقتصادية من أرسطو حتى كارل ماركس . وقد جرنى أرسطو الى دراسة الفلسفة اليونانية . وكارل ماركس الى هيجل والفلسفة الالمانية . وكان التركيز

فى ذلك الوقت على ماركس بالذات للحدث العظيم الذى شغل أوروبا وقتئذ ، وهو ثورة روسيا واهتمـــام مفكرى العالم بهذه التجربة الانسانية الحية وما تحمل فى طياتها من آمال وكان أملنا فى مصر يومئذ هو الخلاص من الاحتلال الانجليزى . فكان من بين ما استهوانى فى ماركس وقوفه ضد الامبريالية . على أن قراءاتى الخاصة كانت أشمل . والنهم اليها متجدد لان المعرفة أمامى فى باريس ملقاة فى الشوارع . وكلما تسكعت قادتنى قدمى الى مكتبة تلقى بكتبها على الافاريز . وعلى افريز شارع « سوفلو » وجدت فى مكتبة اسمها « دلاجراف » كتابا زهيد الثمن فى تاريخ الفلســفة « قضاياها ومذاهبها » فى أكثر من الف صفحة تأليف بول جانيه وجبريل سياى الاستاذين بجامعة باريس . انها الطبعة الحادية عشرة الصادرة حديثـــا فى عام ١٩٢٠ دفعت فيها عشرة فرانكات فقط . وعدت بهـــا الى حجرتى بمثل هذا الكتاب فى حوزتى استطعت ان أكون فكرة شاملة عن مجرى التفكير البشرى .. ولكن الافاريز لا تكف عن عرض الكتب فى مجرى لا ينقطـــع سيله ، سيل المطر الجارى من تحتها . هذا هو فولتير وروسو وكل أعلام عصر التنوير بفرنكات معدودات . ولكن الذى حدث فى عقلى كان شيئا مخيفا . لكأنى فتحت نافذة فى رأسى هب منها اعصار هائل قلب كل شىء .. وذهبت الى صديقى الدكتور سعيد فاجئتـــه بقولى : « اجبنى حالا هل تؤمن حقا بالجنة والنار ؟ ! » فحمـــلق فى وجهى كمن ظن أنى شربت أكثرت من الشراب . ولكنى لم أكن قد ذقت الشراب بعد . لا أنا ولا هو . وقد ظل هو الى آخر يوم فى حياته لم يذق الخمر . ولما كررت عليه السؤال . اكتفى بأن قال

لى : « هل حصل فى عقلك شىء ؟ ! » فقلت له بلهجة الجزم : « حصل كتير ! .. » والححت فى السؤال ، وامر هو على الصمت . وعندما أفهمته اننـا فى مرحلة يجب ان نطرح فيها كل شىء على العقل ليطمئن منـا القلب . رفض الخوض فى مثل هذه الموضوعات . ولكنى كنت فى بيئة تفكير . ولاول مرة اشعر بشىء خطير حدث فى حياتى . هذا الانتقال السريع من عصر الى عصر . كنت كسمكة النيل الهادىء خرجت فجـأة الى موج البحر المتلاطم . خرجنا من جو فكرى راكد الى جو تبرق فيه الافكار وترعد . وتتخذ فيه العقول صورة الجنود . تركض ركضا فى كل حلبة من حلبات النشاط الانسانى . كل حاجز تتخطاه . وكان عقبـة تقفز من فوقها . والركود عندها هو الموت . اذن كنا امواتا ونحن لا نشعر . وأحسست بالعقل يتحرك . كالمهر حديث العهد بالجرى . فرح بحركة سيقانه يشب عليها ويحاول الجرى مع الخيول . ولكن صـديقى الدكتور سعيد يريد أن يضع أمامى حاجزا لا ينبغى أن اتعداه . هذه الموضوعات التى لا ينبغى المناقشة فيها . وعندما قلت له : « وما الضرر ما دمنا مؤمنين ؟ فلنناقش كل شىء بحرية ما دام الامر سيؤدى بنـا فى النهـاية الى الايمان » . فلم يرق له كلامى . وقال بحسم : « نتناقش ؟ ! اسكت بلاش كفر ! ! واراد أن يغـير الموضوع بسرعة .. حقا ان الايمان مريح . ولـكن من شيمة العقل أن لا يستريح . ولكى يضع سعيد حدا لما سماه تخريفى اخذ يغرينى بالذهاب معه الى مكان اكتشفه يطلع فيه القمر بدرا متألقا فى وقت الظهـيرة . وقادنى من يدى الى مطعم فى آخـر الحى . دخلناه وجلسنا الى مائدة من موائده اختارها

بعناية . كانت بالقرب منا فتحة فى الجائط كالطاقة أو الكوة أو النافذة الصغيرة تؤدى الى المطبخ ، وتخرج منها أطباق الطعام . ونبهنى صديقى الى هذه الكوة لان منها سيظهر البدر المكتمل بين لحظة واخرى .. وفعلا لم تمض لحظة حتى ظهر فى الكوة وجه حسناء كأنه البدر ضياء .. انها الطباخة الجميلة بقبعتها الفالية البيضاء . الحق اننا لم نستطع أن نحول أنظارنا عنها طول الوقت . كان هذا المطعم متخصصا فى الأطعمة الفرنسية القديمة ذات الاسماء الغريبة فلم نفهم منها شيئا غير كلمة « كوستليته بالبطاطس » . فصرنا نحضر كل يوم ونجلس الى نفس المائدة ، ونرصد طلوع القمر من خلف الكوة . ونطلب الصنف الوحيد الذى لا نعرف غيره وهو الكوستليته بالبطاطس وأنظارنا مسددة الى الكوة ، وعيوننا معلقة بأشعة البدر المنير . وتكرر هذا كل يوم . نفس صنف الاكل ونفس التطلع الى البدر . الى أن كان يوم سبقت فيه صديقى سعيد الى دخول المطعم وتخلف هو ليشترى علبة سجاير . وجلست وحدى الى المائدة المعتادة انتظره ، وأتطلع الى بدرنا فى الكوة . واذا بصاحبة المطعم وكانت أمرأة مسنة بدينة ضخمة قوية تجلس دائما أمام الخزانة على مقربة منا تلاحظنا من طرف خفى فيما يظهر ، وترقب أحوالنا دون أن نشعر ، قد نهضت من مكانها وقصدتنى قصدا وأمسكت بذراعى وأرادت أن تجرنى الى المطبخ .. وأنا اقاوم واتشبث بكل ما تقع عليه يدى ، وهى مصرة على جنبى وشدى مرددة كلمة « تعال .. تعال ! » وجاء صديقى سعيد ورآنى على هذا الحال . وما كدت أنا أراه حتى صحت به مستنجدا قائلا باللغة العربية : « الحقنى يا أخى ..

هذه الولية صاحبة المطعم ضبطتنا متلبسين بمغازلة الطباخة وتريد جرى الى المطبخ للتحقيق ! » فاستشاط الدكتور سعيد غضبا وهم على المرأة الضخمة وخلصني منها وقال لها بلهجة عنيفة : « ما هذه السخافة ؟ . ماذا فعلنا ؟ هل نحن قبلناها أو حضناها ؟ ! . لا قبلة ولا حضن . مجرد مغازلة بريئة من بعيد لبعيد ! .. » ولم يبد على المراة انها فهمت شيئا . فقد ظهر على وجهها الدهشة والاستغراب ثم جعلت توضح موقفها قائلة انها لاحظت أننا لا نطلب كل يوم غير صنف واحد بعينه هو الكوستليته بالبطاطس ، فأدركت ، ونحن غرباء كما يبدو من هيئتنا ، اننا لا نعرف ما فى المطعم من أصناف أخرى قد تروق لنا اذا شاهدناها . واخذتها الرافة بنا فارادت أن تدخلنى المطبخ لأرى بنفسى ما فى الاوانى والحلل والصوانى من أطايب الاصناف والالوان وانتقى منها ما يحلو لنا .. وهذا كل ما فى الأمر . وهى لا تدرى لماذا نرفض ونقاوم ونغضب ؟ !. فضحكنا . وافهمناها اننا كنا نظن المسألة لها صلة بمغازلة الطباخة الحسناء . فضحكت بدورها وقالت أنهم فى باريس لا يقيمون وزنا لذلك . وانه يسرها ان يكون فى محلها المتواضع شىء يثير الالتفات . وحكت لنا حكاية رجل مرت أمامه امرأة جميلة فرمقها بنظرة اعجاب مهذبة ، فغضبت المرأة وقالت له لماذا ينظر اليها هكذا ؟ فأجابها على الفور : وهل تريدين يا سيدتى أن تأتى وتذهبى دون أن يكون لوجودك مايدعو الى الاهتمام ؟ ! قلت لصديقى سعيد : المهم أن نكون مهذبين .. قال : لك فى الشرع نظرة واحدة ، لاحتمال أن يكون القادم أسدا ! .. ولكن النظرة الواحدة هنا

فى باريس لا تكفى .. لاحتمال أن يكون القادم اسودا من الحسان ! .. وضحكنا وعجبنا لما بدا علينا من خوف وارتباك لمجرد الظن بأن صاحبة المطعم قد ضبطتنا نغازل الطباخة عن بعد بالنظر .. انها رواسبنا وقد جئنا بها . ففى بلادنا اليوم حجاب . ومن يصادف فى عربة حنطور رجلا وامرأة . حتى وان كانا زوجين . فان الشارع كله يجرى خلفهما متصايحا بمختلف الالفاظ وكأنها جريمة قد ضبطت ..

كانت المرأة فى فرنسا وقتئذ تجتاز مرحلة جديدة . ربما على أثر هذه الحرب العالمية الاولى ، واشتغال المرأة فى ميادين القتال بالتمريض والترفيه ونحو ذلك، وفى ميادين العمل فى المدن بما كان يقوم به الرجال الغائبون فى الجبهات . كانت المشكلة هى نزوع المرأة الى كسر قيودها الاجتماعية . فبدأت تظهر وخاصة فى مجالات العمل نساء قصصن شعورهن كالذكور مما وصفه الشاعر العربى القديم بقوله : « غلامية الشعر مطمومة » . ومما أطلقوا عليه هنا فى باريس وقتئذ كلمة : « الا جارسون » . ولكن المسألة لم تقف عند حد المظهر .. بل كان المطلب هو الاستقلال . استقلال المرأة بحياتها الخاصة وجسدها وسلوكها . أسوة بما للرجل من استقلال وحرية فى التمتع بحياته وبجسده لا يحده من العرف والتقاليد ما يحد المرأة . فهى كما كانت تقول تعمل عمله ولا تتمتع بحريته . وقام كتاب يعبرون عن هذه الحركة ، كما نهض روائيون يصورون هذه الشخصية الجديدة للمرأة . من ذلك رواية « الاجارسون » ثم رواية « جسدك لك » وهما من تأليف كاتب جرىء هو «فكتور مرجريت»

فقامت عليه القيامة وخاصة من الاوساط البرجوازية العريقة فى تمسكها بالتقاليد القديمة مما ادى الى طرده من عضوية الاكاديمية الفرنسية . وكان لذلك ضجة سمعناها هنا كلنا . كل هذا فى وقت كنا نطالب نحن فيه بالاستقلال والحرية . لا للمرأة المصرية التى كانت لم تزل محجبة ، وكانت تشارك فى الحركة الوطنية ومظاهراتها وجسدها ملتف بالملاءات والحبرات ووجهها مسدلة عليه البراقع واليشامك ، بل الاستقلال والحرية للامة كلها من وطأة الاحتلال الانجليزى .. وكان القلم الجرىء الذى نهض فى فرنسا لنصرتنا هو قلم « فكتور مرجريت » هذا أيضا فقد كتب كتابا سماه : « صوت مصر » صدره بمقدمة مشهورة لكاتب فرنسا العظيم « اناتول فرانس » .. كانت أول امرأة شاهدتها فى باريس تمثل هذه النزعة النسائية الجديدة هى عاملة التذاكر بمسرح الاوديون . اطلت علينا من شباكها الصغير بشعرها الاشقر المقصوص القصير وكان المنظر غريبا على مثلى . فاشتقت ان احادثها . ولابد لذلك من ان ادعوها الى العشاء . ولكن كيف السبيل اليها ودون المثول بين يديها صف طويل من زبائنها الراغبين فى حجز الاماكن بهذا المسرح . وهى قلما تكون منفردة طوال ساعات العمل . وإذا انا وصلت اليها فماذا أستطيع ان اقول لها فى دقائق خاطفة ؟ .. خطر لى ان أكتب لها ما اريد قوله فى شبه مسرحية صغيرة . فاستعنت بالله وبقواميسى ومعاجمى على كتابة هذه المسرحية بلغة فرنسية بسيطة . وسميتها « أمام شباك تذاكرها » جعلتها بطلتها وانا زبون عابر يغازلها بأدب ويدعوها بلطف الى العشاء . ووقفت فى الصف الطويل ، وما أن بلغت

شباكها حتى وضعت أمامها المسرحية ، وانصرفت فى الحال ودهشت هى بالطبع لذلك الذى طلع اليهـــا من بين الناس لا ليطلب تذكرة ، بل ليترك لها مخطوطا . وعدت اليها بعد يوم . وكانت قد قرأت المسرحيـة فابتدرتها بقولى : « أنـــا المؤلف » . فابتسمت ثم ضحكت وسألتنى عما أريد ؟ .. فقلت لها : اخراج نهائية المسرحية ، أى الدعوة الى العشاء . فترددت . ثم أقبلت فى النهاية . ونشأت بيننا عـــلاقة . دامت أسبوعين على أتم وجه .. ولكن كل شيء بدأ يتغير بعد ذلك . فقد تبين لى أن هذه العلاقة نشأت فى غفلة من الزمن أو على الاصح من عشيق لها كانت معه على خصام ، فلما تصالحا لم يعد لى مكان . وأغضبنى ذلك غضبا شديدا . وتمنيت لو أظفرنى الله بهذا العشيق الفرنسى الانيق لاشبع فيه لكمـــــا ولطما .. وفى ذات يوم كنت أجلس فى مجلسى المختار بقهوة داركور واذا بى ألمح فى الطريق رجلا كانت له فى ملاهى عماد الدين سطوة وشهرة . سمعت عنـــه وعرفته معرفة عابرة لاختلاطى فى مصر بهذه الاوساط. كان أحد ملوك الليل المعروفين بشدة البأس . كان قوى البنية ضخم العنق كالمصارع . يدخل الملهى فترتج أركانه . واذا لم يدفع له أصحابه الاتاوة جعل عاليه أسفله .. ولما ضجت الحكومة من أفعاله نفته خارج البلاد فجاء باريس واشتغل بها عاملا يحمل البراميل . كان ذلك تقريبا فى نفس الوقت الذى جاء فيه أيضـــا الشاعر الشعبى بيرم التونسى . جاء منفيـــا هو الاخر . وان اختلفت الاسباب فالفتـــوة البلطجى كان يحطم الملاهى بأفعاله ، والشاعر الشعبى كان يحطم فساد الدولة بأقواله . وكلاهما كان فى نظر الحكومة مستحقا

لنفس الجزاء وهو النفى ! .. ولم أصادف بيرم التونسى فى باريس فقد كان كما سمعت يعمل فى الضواحى بأحد المصانع أعمالا يدوية صغيرة . ولم أره قط فى الحى اللاتيني . أما صاحبنا الفتوة ملك الليل ، وكان اسمه « يوسف شهدى » فقد ظهر فى الحى ذلك اليوم، وما كدت أبصره حتي نهضت خلفه فى الحال واستوقفته واجلسته على القهوة وطلبت له كوبا من البيرة . ولما استوثقت من اطمئنانه الى ، قلت له : « انا طالب منك شغلة بسيطة » . فقال « انا خدامك » قلت له : « كل طلبي انك تضرب لى واحد علقة سخنة » .. فما كاد يسمع ذلك حتى انتفض واقفا وهو يصيح بى : « كله الا كده ! .. اعمل معروف سيبنى فى حالى ، احنا هنا مش فى مصر ! سلام عليكم ! » وتركنى وانصرف ولم أر له وجها بعد ذلك ابدا ..

وغمرتنى الحياة فى باريس بدواماتها المختلفة . فقد كان للحرب العالمية الاولى من الاثار ما يصيب الانسان بالدوار ، فقد كانت هذه اول حرب بشرية يشترك فيها العالم كله بالاعباء العسكرية والمدنية، وينتج عنها تبعا لذلك من الافكار ما يقلب الاوضاع فى كل مجال من مجالات النشاط البشرى . ففى الادب والفن شاهدت مولد السريالية وثورتها ضد المنطق العقلى . وكان زعماؤها من الشباب المقترب منا وقتئذ فى السن . كما عشت فى جو نخبة من الفنانين المجددين المجاهدين ضد العنت والرفض العام فى تلك الايام . كانوا فى الفن التشكيلى بيكاسو وفى الشعر كوكتو وفى المسرح بيتوييف . واحيانا كانوا يلتقون فى عمل فنى واحد فى صورة مسرحية . وكان الفقر

والصعلكة والفكر المتحرر اطارهم الذى يتحركون فيه . وكنت مثلهم أريد أن اتحرر بفكرى وأن احاول فهم كل ثورة جديدة فى الفن والفكر وكانت حياتى قريبة من حياتهم من حيث الصعلكة والفقر ونهم المعرفة . كنت قد سكنت يومئذ فى ضواحى باريس حيث كانت الاقامة الكاملة مع المأكل والمشرب لا تكلفنى اكثر من ستة جنيهات فى الشهر ، يدخل فيهما أجرة تذكرة القطار الذى كان ينقلنى الى باريس كل يوم . كانت المسافة اقل من نصف الساعة . وكان القطار يسير بالفحم ويتطاير دخانه الاسود الكثيف وينتشر فوق العربات . وكان للعربات دوران . دور علوى مكشوف اشتقت أن اصعد اليه . وصعدت مرة ولم أجد معى احدا . ولما وصلت وجدت الناس يحملقون فى وجهى . فنظرت فى مرآة بفناء المحطة فاذا بى قد انقلبت زنجيا من دخان الفحم المتطاير . ولكن هذا السكن البعيد كان يضايقنى فى السهر . كنت أخرج من مشاهدة مسرحية أو حفلة موسيقية لاكمل السهرة فى مقاهى الصعاليك من الفنانين الى ان يفوتنى آخر قطار وينصرف رواد القهوة ولا يبقى غيرى ، ويريد أصحاب القهوة اغلاقها او تنظيفها استعدادا للصباح، فلا اجد مناصا من الانصراف . ولكن الى اين ؟ رأيت ذات ليلة ان خير مكان آوى اليه حتى الفجر هو منزل من منازل حى سان دنيس . تلك المنازل ذوات المصابيح الحمراء على ابوابها . فان قاطناتها من العاهرات الرخيصات لا يمكن ان يرفضن طارقا فى اى وقت من أوقات الليل .. كانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحا . وطرقت الباب واذا بالتى فتحت عجوز شمطاء فى يدها مكنسة ، تكنس بها المنزل وكانت

تكنسنى انا ايضا وهى تقول : « اذهب .. اغلقنا . والبنات دخلن للنوم ! » وسدت فى وجهى الباب . وسرت فى الطرقات مع عربات الرش حتى موعد قيام اول قطار .. فذهبت الى المحطة ، لأعود الى مسكنى وأنام بينما أفواج العمال يخرجون نشيطين الى المصانع . ولكنى عندما أنام نهارى فأنى أسهر ليلتى كلهـا فى قراءات مستمرة . ليلة كامله للصعلكة وليلة كاملة للقراءة . وكان راسى قد امتلأ حتى كاد ينفجر . وكنت احيانا اكلم نفسى واحاورها فى مختلف الافكار والاتجاهات والثقافات وقضايا ذلك العصر المولود حديثا من رحم حرب جبارة . كان الى جانب انقلابات الفن والادب انقلابات أخرى فى المجال الاجتماعى الاقتصـادى . فقد هزت التجربة الثورية الروسـية افئدة المثقفين وعقولهم الى حد اصبحت فيه كلمة « الشيوعية » الرداء الزاهى للمثقف قبل العامل . واراد كل كاتب مرموق أن يذهب الى روسيا ليرى بنفسه المعجزة . فى فرنسا كان « أندريه جيد » يتأهب لذلك . وفى انجلترا « برناردشو » . ولكن مصر المسدل فيهـــا الحجاب ، لا على وجوه النساء فقط بل ايضا على عقول الناس ، لم تكن تعيش الا بأمل واحد هو : الخلاص من وطأة الاحتلال البريطانى . وكانت تبحث عن نفسها الضائعة وعن شخصياتها المدفونة تحت رمال الزمن . ولم يكن لها بعد كيان سياسى . فلما اضطرت بريطانيا تحت ضغط الثورة المصرية عام ١٩١٩ الى بعض التساهل رضيت ان يكون لمصر شىء من مظهر الدولة . فلقب السلطان فؤاد [illegible] سفراء فى الخارج . وكان لنا سفير فى باريس [illegible] ـد افراد اسرته . وقرر الملك فؤاد ان يسافر الى الخارج

ليعلن الى العالم وضعه الجديد . فجاء الينسا فى باريس ، فى زيارة رسمية . وقد اخطرونا يومئـذ ، ـ نحن المصريين المقيمين هنا ـ أن نستعد لاستقباله فى محطة الوصول . وكانت محطة صغيرة فى مدخل باريس فرشت بالبساط الاحمر . وأصونا أن نأتى كلنا بالطرابيش . وكانت حيرة لنا . فأكثرنا لم يكن يحتفظ بطربوشه فى باريس . فصرنا نجرى هنا وهناك نبحث عن طرابيش . وكان منظرنا يومئذ فى المحطة مضحكا . فمنا من كان طربوشه واسعا يصل الى أذنيه ومنا من كان الطربوش ضيقا فى نصف رأسه . ومنا من لم يجد غير طربوش مغربى بلا زر . المهم أن المحطة امتلأت بالرؤوس الحمراء . ونزل الملك فؤاد من القطار بعظمة الملك الشرقى ، وشواربه مدهونة بالكوزماتيك مبرومة مرفوعة الى أعلى يقف عليها الصقر واستقبله كبار رجال الدولة الفرنسية وساروا به وهو يحيينا باشارات من يده ، الى أن ابتعدوا عنا ، فتفرقنا من المحطة ونحن نخلع طرابيشنا المضحكة ونحاول اخفاءها . ما عدا واحدا احتفظ بطربوشه وكان طربوشا حقيقيا ملائما لرأسه ولم يستعره من أحد . كان ذلك الرجل هو صديقى الدكتور سعيد . لم أكن قد رأيته منذ أسابيع . كان كل منا فى واد من أعماله ومشاغله . فلما التقينا فى المحطة تصافحنا بشوق وذهبنا معا الى القهوة المعتادة « داركور » . وأخذنا فى الحديث وأحاديث صديقى سعيد تدور أكثرها حول النساء ، والباقى حول الدين وهو بايمانه الذى يشبه ايمان العجائز ولا يناقش فيه قد دمغ الدين كل حياته . فلم يذق الخمر ولم يعرف القمار ولم يفارق القرآن . ولا أدخل معمله الا وأجد المصحف مفتوحا الى جانب

أنبوبة الاختبار بمـــا فيهـــا من بكتريا ومكروبات . الا النسـاء فلا يجد فيهن حراما ولا ضلالا . وما أن فتح الحديث حتى بادرنى بخبر امرأة لم ير فى باريس كلها اجمل منها وجعل يصف لى محاسن جسمها ، وهى أحيانا نصف عارية واحيانا فى غلالة حريريه رقيقة . ولما سألته : أين راى كل هذا ؟ قال : فى الفندق المواجه لفندقه . فى حجرة بهذا الفندق . ابصر طيفها مرة من خلال النافذة المفتوحة ، ثم جعل يراقبها وهو مأخوذ بهذا الحسن والجمـــال اياما طويلة ! .. انها ليست وحدها لها عشيق لا يفارقها . انه شاب يابانى . اصفر الوجه قمىء القامة . وما الذى أغراها فيه ؟ ! النقود يا صاحبى النقود ! .. لم يفت سعيد بالطبع أن يتحرى عن هذا الشاب ويعجم عوده فعـــرف انه مبعوث من دولته ويتقاضى منها مبلغا محترما لا ليدرس فى جامعة أو يلتحق بمعهد بل ليقوم بمهمة عجبنا لها : هى أن يبادر بترجمة أحدث المؤلفات التى تظهر فى فرع معين من فروع المعرفة الى لغة بلاده اليابانيـــــة ويرسل ذلك فورا الى الجهة التى تعنى بذلك فى اليابان ولم يذكر لى سعيد ما هو نوع هذا الفرع من المعرفة . هل هو الادب أو العلم أو الفن ؟ .. فقد كان الذى يهمه فى الامر كله حكاية المرأة . اما أنا فقد فكرت طويلا فى ذلك . لابد لهذا المبعوث من زملاء كثيرين لكل علم وأدب وفن ولكل لون من الوان الحضارة الاوروبيـــة منتشرين ، لا فى فرنسا وحدها ، بل ربما فى كل أنحاء العالم المتحضر . ان اليابان تريد اذن ان لا يقـــوم حاجز بينها وبين ما يحدث فى عقل أوروبا والعـــالم المتحضر فى اى لحظة من اللحظات واليابان هـــذه تفصلها عن أوروبا قارات واسعة ومحيطات شاسعة .

فى حين اننا فى مصر نقعـد مواجهين لاوروبا على الشاطىء الاخر من هذه البحيرة المسماة بالبحر الابيض المتوسط . ولولا هذه البحيرة أو البحـر المصغير لكنا معها وكانت معنا قطعة واحدة نحن اذن اولى من غيرنا بأن نعرف كل ما يدور داخل ذلك العقل المتحرك بالاعاجيب أمامنا على الشاطىء الاخر . حدث يوما مثل ذلك على نطاق مصغر جدا ، يوم جاء هنا فى باريس شيخ معمم اسمه رفاعه الطهطاوى ، ترجم ونقل ما استطاع ترجمته ونقله من آثار الحضارة العصرية . ولكننا كنا نحتاج الى مئات من أمثال رفاعه الطهطاوى . كما كنا نحتاج الى الخطة المنظمة والى الاستمرار الدءوب ، والى اختيار العناصر التى يمكننا تشرب الحضارة فى مختلف نواحيها وملاءمتها مع خير ما نحتفظ به من مقومات شخصيتنا . وكان من بين زملائنـا فى باريس يومئذ من تنطبق عليهم هذه الصفات . كما كان من بينهم نفر سجن نفسه فى التخصصـات الدراسية أو المهنية التى جاء من اجلهـا فلم تبصر عينه شيئا آخر مما حوله من رقى فكرى وفنى وكان صديقى سعيد من هذا النوع الاخير . نبغ فى تخصصـه الى حد جعل معهد باستور يعرض عليه كما قلت وظيفة ثابتة فيه بمرتب طيب على الرغم من جنسيته الاجنبية ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته ، والاقامة الدائمة فى بيئة غير بيئته . وهو الرجل الذى لا يستطيع كما قال لى أن يعيش طويلا بعيدا عن المساجد والمآذن . فهو منذ الصغر ، يوم كان غيره من الغلمان يقرأون قصص الف ليلة وليلة ، كان هو يفتش فى كتب والده الدينية. وعثر فى التصوف فطالعه وفكر فيه مليا ثم كتب مقالا عن الرهبنة فى الاسلام ، اعتبر فيه التصوف نوعا من

الرهبنة وبعث بالمقال الى جريدة « المقطم » فنشرته تحت عنوان ضخم : « الرهبنة فى الاسلام لفضيلة الشيخ سعيد .. » واثار المقال ضجة بين علماء الازهر ، واشتد النقاش بينهم ، بين موافق ومعارض . واتهم بعضهم بعضا بالزندقة . وكان والده من بين القراء المتابعين للنقاش العنيف ، دون أن يدرى أن الشيخ سعيد هذا الذى أثار الزوبعة واوقع رجال الازهر بعضهم فى بعض ليس سوى ابنه الصبى ، الذى نسي أمر مقاله وانصرف يلعب مع زملائه الغلمان فى الحارة ! .. ولا أستبعد ذلك من صديقى سعيد ففيه من المتناقضات ما يحير .. دخلت عليه ذات صباح فى حجرته بالفندق ، فوجدته منكوش الشعر والحاجبين ، ذلك الشعر الاسود الغطيس على وجهه الاسمر الغامق ، وقد جلس على طرف السرير وأدلى بقدمين بلون الزفت والقطران فى طست كبير ، وحسناء قال انها بلجيكية نزلت باريس حديثا لا ادرى كيف التقى بها ، قد ركعت على ركبتيها امام الطست تغسل له قدميه .. فما تمالكت أن صحت به : « لعنة الله عليك متوحش همجى ! » وفهمت الحسناء من لهجتى واشارتى انى أشتمه فضحكت ، وضحك هو ، ولعب لى حواجبه على الطريقة الشرقية ، وكأنه يقول لى : « مت بغيظك ! .. » . وانسحبت انا فى الحال مشمئزا من هذا المنظر ، منظر المتحضرة التي يعاملها صديقى الشرقى معاملة الجوارى ! .. وذهبت توا الى حجرتى الجديدة فى شارع « اولم » على مقربة من مبنى « البانتيون » العظيم . مدفن العظماء حيث كتب على جبهته بماء الذهب هذه العبارة المشهورة : « لعظماء الرجال تقدير الوطن » . كانت الحجرة

عند امرأة جاوزت الستين ، فى شقة من ثلاث حجرات ومدخل . تؤجر حجرة منهـا مفروشـة هى التى استأجرتها من ايام ولعل ما أغرانى بهذا السكن اعلان حائط كبير علق بالمدخل ، يعلن عن حفلة تمثيلية يرجع تاريخها الى عام ١٨٩٩ لمسرحية«راسين» الخالدة « أندروماك » ، على مسرح بلدية مدينة روان ، العاصمة القديمة لمقاطعة نورماندى . ولما سألت عن سبب لصق هذا الاعلان القديم على حائط المدخل ، اجابت المرأة العجوز فى زهو ومباهاة وهى تشير الى اسمها فوق الاعلان الذى اصفر واغبر من القدم : هذا اسمى انا . وكنت انا أمثل دور « أندروماك » وكنت بالطبع جميلة وموهوبة . أما الان فانى أعيش على الذكرى ! .. حقا كان كل شىء فى هذا المسكن الصغير يفوح برائحة الفن ، كما يفوح عطر الوردة المحنطة داخل صفحات كتاب قديم . واستهوانى ذلك الجو . واردت أن اعيش فى كنفه اياما ..

هذه صور خاطفة لانطباعات عمرها يقرب من الخمسين عاما .. ازدحمت فى رأسى وأنا القيها الان القاء سريعا على الورق .. ببساطة وبلا ترتيب . الخاطر يجر الخاطر . حسب ما تأتى به يد الذاكرة من بعيد وسط ضباب الماضى . وأنا أهيىء نفسى الان للقيام برحلة المستقبل . فالى الطائرة سفينة اليوم .. التى تمخر بنا الفضاء فى ساعات لا فى أيام ...

رحلة حول الماضى

ركبنا الطائرة فى اتجاه جنيف . لم اشعر بوقت يمر للهبوط . لا مكان هنا للاسترخاء والتامل على النحو الذى كنا نعرفه فى البواخر البطيئة . فى مثل هذه السرعة الخاطفة كيف يتأمل اذن اليوم المتاملون ؟ ! .. اغلب ظنى ان التامل والتفكير اليوم هما من قبيل الموجات الكهربائية او الشحنات المغناطيسية ، فى حين كان تأملنا وتفكيرنا فى عهد الوقت البطىء هما من قبيل التوليدات المنطقية والمولدات البخارية .. لم اكن قد رايت جنيف منذ اواخر الثلاثينات .. لذلك بدا لى كل شىء فيها الآن جديدا .

ونقلتنا سيارة أجرة الى الفندق . واذا بى الاحظ أن سائق السيارة يكلم نفسه طوال الطريق بصوت مسموع ، وكأنه يجيب على أسئلة توجه اليه . فقلت فى شبه ذعر : سائق التاكسى مجنون ، وقد وقعنا فى شر أعمالنا ! .. ولكن مرافقى سرعان ما تنبه وطمأننى : بالسيارة تليفون لاسلكى . والسائق يخاطب به من يطلبونه . وعلمنا بعد ذلك أنه ما من سيارة تاكسى تسير بغير هذا التليفون اللاسلكى . وان الطلبات يتلقاها السائق وهو فى الطريق . فلا يوجد تاكسى يسير هنا على غير هدى . وعندما طلبنا ذات مرة من السائق أن ينتظرنا قليلا أمام أحد الحوانيت ، اعتذر ، وقال انه مطلوب باللاسلكى لاحدى المهمات السريعة . ودلنا على محطة أتوبيس . وعندما ركبنا الاوتوبيس ، لم نجد أحدا يطلب منا تذكرة . ونظرت الى بقية الركاب فوجدتهم جميعا جالسين هادئين هانئين لا تذاكر فى أيديهم ولا كمسارى يطالبهم . ومن يصعد يصنع مثلنا يجلس ، وما من مطالب . وليس فى المكان غير السائق وحده المنهمك فقط فى قيادة المركبة . قلت فى نفسى ولمرافقى لعل الاوتوبيس هنا بالمجان . ورأينا للاطمئنان أن نسأل السائق ، فسألناه ، فقال بدهشة : « أليس معكم تذاكر ؟ » .. تذاكر ؟ ! .. وهل طلب منا أحد تذاكر ؟ ! فابتسم الرجل بسماحة . وعند أول محطة ترك مكان القيادة ونزل معنا وأرانا جهاز بالحائط توضع فى ثقب منه عملة صغيرة فتخرج التذكرة من ثقب آخر ، ويختمها الراكب بنفسه من ثقب ثالث . وعلمنا كيف نصنع كل ذلك وتركنا وعاد الى عمله ، وقد فهمنا منه انه ما من أحد يطلب من راكب تذكرة أو يفتش أو يراقب أو يراجع .. لأن المفروض هنا الامانة . وما من راكب

يخطر بباله هنا سوء النية . الامانة والنظام ! .. كم يوفران على الشعب وعلى الدولة من جهد ومال ! .. ورحم الله شعوب الهرجلة وقلة الذمة ... !

على أن الذى أدهشنى أيضـــا فى سويسرا ، هو ما رأيته فى أكثر من صيدلية . انى معتاد على دواء ضد تصلب الشرايين مصنوع فى سويسرا . وقد عولت على انتهاز فرصة وجودى بها لاشترى كمية كافية منه . ولكن ما كدت اسأل عنه حتى وجدتهم يبحثون لى عنه بمشقة ، كما لو كان دواء اجنبيا . ولم أجده فى أكثر من صيدلية .. وعندما وجدته أخيرا ، لم أجد غير زجاجة واحدة منه لدى الصيدلى ، فصحت به : هـــذا دواء سويسرى مصنوع فى بلادكم ، ونحن نستورده منكم ..

□ فقال : « هذا صحيح . ولكن الطلب عليه قليل من زبائننا نحن هنا » .

■ فقلت له : « اذن نحن نمرض ، وأنتم تصـــنعون لنا الدواء ! » .. وتركناه الى فندقنا الذى وجدنا فيه حجرة بغاية الصعوبة وبأبهظ النفقات . الفنادق هنا كلها مشغولة . كاملة العدد . بلد سياحى . يكتظ بالناس من مختلف الاجناس وتتدفق فيه المســلات الحرة والصعبة كالانهار لتصب فى بحيرة « ليمان » . هذه البحيرة الجميلة تتوسطها نافورة ، اقتبسنا عنهــا نافورتنا التى فى النيـــل . ولكنهم هنا يعـــرفون كيف ينتفعون بالجمال ، ويدركون كم يدر الجمال من مال . نزهات البحيرة لا تنقطع . وفى كل ساعة يطوف فيها قارب بخارى بالسائحين . وركبنا قاربا من هذه القوارب طاف بنا ساعتين فى أرجاء البحيرة ، فرأينا نموذجا مصغرا للجنة الموعودة . على الضفتين تلال خضراء

تنتثر عليهاقى شبه مدرجات طبيعية من غابات وأزهار قصور وفيللات وشاليهات ... وكان مذياع القارب يذيع علينا بين لحظة وأخرى وصف ما نرى .. فيقول : « هذا القصر الذى عن يمينكم فى تلك الضفة هو قصر الاغا خان .. وذلك القصر الذى عن يساركم فى الضفة الاخرى هو قصر المالى الشهير روتشيلد .. ونحو ذلك ممن أنعم الله عليهم فى الدنيا فجعل لهم قصورا فى جنة الارض « الفانية » ! .. وادركنا بالحس المادى معنى قولنا ودعائنا نحن المؤمنين فى كل ركعة : اللهم اجعل لنا قصرا فى الجنة ! .. ولكنى انا شخصيا اكتفى فقط بفيللا صغيرة من هذه الفيللات المنثورة ، أو مجرد شاليه من هذه الشاليهات . وحبذا لو عجل لى الله هذا النعيم فى جنة الارض أولا ليطمئن قلبى .. وتذكرت ما كنت قد قراته فى عشرينات هذا القرن عن الموسيقى « سترافنسكى » .. قال انه ترك بلاده روسيا ، حاملا حقيبة كبيرة ممتلئة بالاغانى والانغام الفلكلورية لشعبه ، واستاجر فيللا على بحيرة « ليمان » هذه . وعكف عليها زمنا يستخلص منها جواهرها ، وينفض عنها سذاجتها وسطحيتها ، ويصبها فى أروع أساليب الفن الموسيقى الذى درس أسراره وملك ناصيته ، فخرجت للناس تلك الايات الخالدة التى منها « بتروشكا » ، و « عصفور النار » ... جعلت اتامل تلك الفيللات من حولى واقول : لعل واحدة من بينها هى التى سكنها يوما ذلك الفنان العظيم ... ولكن هذا شىء طبيعى أن يولد فى مثل هذه الجنة الجميلة فن جميل ! .. جرنى يا الهى .. ضعنى فى جنة من جناتك ، وأسبغ على السكينة وراحة البال ، وابعد عنى مسئوليات الاسرة ومتاعب العيال ... وجنبنى ما يؤذى الاسماع والابصار .. وما يهز الاعصاب

من سوء الاخبار .. ثم طالبني بفن جميل ! .. مرة واحدة فقط فى حياتى ولمدة أسبوعين عشت فى مثل هذا الاطار الطبيعى الجميل .. ولكن كل شىء مر بسرعة خاطفة وانا ذاهل عن التفكير الجدى فى انتاج اى عمل فنى ... كان ذلك فى عام ١٩٣٦ .. فى الصيف .. ذهبت الى باريس . فمرضت . فعادنى طبيب ووصف لى تغيير الهواء فى أحد مصايف الجبال .. فكدت أهمل علاجه . فالجبال هذه لا أعرف عنها شيئا .. ولكنى تذكرت فجأة أن الدكتور طه حسين كان قد ترك لى عنوان مصيفه فى احد جبال الالب بالسافوا العليا فى فرنسا ، على أمل ان نتقابل .. فلقد كانت الفرقة القومية قد أنشئت فى العام السابق ١٩٣٥ ، وافتتحت بمسرحيتى « أهل الكهف » . فرأت الفرقة ، وكان مديرها الشاعر الكبير خليل مطران ، أن يكون افتتاح الموسم التالى بمسرحية يكتبها طه حسين . ولكن يظهر ان الدكتور طه اقترح ان اشترك معه فى تأليفها . فرحب مدير الفرقة . وأيدت اللجنة العليا المشرفة عليها ، وكان من بين أعضائها الشيخ مصطفى الرازق ، هذا الاقتراح . وجرى الامر فيما يبدو مجرى الجد ، وانا فى واد آخر . فقد كنت قد سافرت الى باريس ومرضت هناك .. ولولا هذا المرض لما تذكرت عنوان الدكتور طه فى الجبل .. ولما فكرت فى جبال على الاطلاق . فانا لا افكر فى غير باريس . وانا كما كان يقول الشاعر الالمانى « هاينى » أنا فى باريس كالسمك فى الماء .. وحزمت أمرى وسافرت الى الجبال ، كان المصيف المقصود قرية اسمها « سالانش » . فى حضن جبل متوج بالجليد . كان منظر الجبل الابيض والغابات الخضراء واشجار البندق واللوز والكرز والابتسار الحمراء

والاجراس الصغيرة فى أعناقها ترعى فى السهول .. اشياء أصابتنى بالذهول .. وكان طه حسين يرقب ذهولى فى مرح خفى وضحك خافت .. ونسينا ما جئنا من اجله . وجلس هو يصف فى فصل أدبى ما كان من امر وصولى وذهولى فيما سمى بعد ذلك بالقصر المسحور . جعلنا نتعابث فيه ونمزح ، ويرد كل منـــا على الاخر فى فصول تتعاقب دون تخطيط او تأليف جدى .. الى ان فوجئنا ذات يوم بخطاب من خليل مطران تاريخه ١٨ اغسطس سنة ١٩٣٦ يقول فيه ما نصة :

« ... اتصوركما جالسين تتعاونان فى ابراز قصة المتنبى على ما سمعت فاغبطكما واتمنى لو تسنى لى السفر وكنت كاتب يدكما . انا لنرقب منكما ما نرقب والفن التمثيلى مشوق اشد الشوق الى الفجر الذى ستطلعانه عليه فى اللغة العربية بعد ليله الدامس الطويل . فبارك الله فيكما وآتاكما الصحة والقوة وغاية ما ارجوه هو ان يمتد بى أجلى لاكون من اشهاد فوزكما ان لم يتيسر لى ان أكون من خدمته .. »

وتأثرت لرقة هذا الشاعر الكبير وتواضعه ، وأسفت لاخذه الامر بكل هذا الجد ، ونحن هنا نعبث ... ثم عجبت لحكاية قصة المتنبى هذه .. انى اسمعها لاول مرة .. هل كانت هناك فكرة أن تكون مسرحيتنـــا المأمولة عن المتنبى ؟ .. لم يخطر على بالنا الحديث فى ذلك ... ولم نفكر قط فى مسرح ولا مسرحية . واستغرقتنا متعة الجبل . كنا نجلس تحت شجرة فى حديقة الفندق ، المنفتحة فيما اذكر على شبه حقل أو مرعى ممتد الى مرمى البصر ، يشقه طريق ضيق برى جبلى غير ممهد ، كنا نسير فيه على الاقدام الى أن نصل

الى البركة التى اصطاد فيها السمك .. وعندما كنت أريد الخلو الى نفسى وورقى لاكتب نصيبى من الفصل العابث ، أذهب الى المقهى الوحيد فى ساحة القرية .. محل صغير لتناول القهوة باللبن ، تديره وتخدم فيه شابة حسناء فى ثوب أبيض كالملائكة . قرية بسيطة . وفندق هادىء .. فندق « الجبل الأبيض » الذى نزلنا فيه . هدوء ينسى المرض ويريح الاعصاب . وهواء نقى معطر بأزهار الجبل البرية ، نشم فيه ريح العافية ... حرام أن نضيع كل هذا فى تأليف مسرحية ... واغرانى المكر السيىء أن القى الحمل على غيرنا ... وغيرنا هنا هو المسكين شاعرنا خليل مطران ... كنت أعلم انه كان قد أتم الجزء الاكبر من مسرحية ألفها عن هارون الرشيد ... فكتبت اليه أطلب ارسال ما تم من هذه المسرحية لنعاونه على اتمامها واعدادها للموسم . فهذا على الاقل عمل جاهز . او على وشك التمام . وهى على كل حال طريقة لصرف النظر عنا وعن قصة المتنبى هذه ... ولكن يظهر أن الحيلة لم تجز عليه . فقد ارسل الى يقول ما نصه :

« ... تقبل منى اعتذارى عن عدم ارسال شىء اليك من الاوراق المنثورة فى قصة هارون الرشيد . فلا قبل لى اليوم حتى بالنظر الى اوراقى القديمه ولا باعمال فكرى أدنى هنيهة . أصلح الله هذه الحالة ومتعك بالعافية ورد اليك تمام النشاط » ...

المهم فى كل هذا انى عرفت الجبل ومتعته وقدرته على أن ينسينا المرض . فلم أشعر فيه حقا بأى توعك فى الصحة . وغادرته الى سالزبورج لاشاهد فى المهرجان الفنى السنوى . مسرحية فاوست لجوته يخرجها

اكبر مخرج حى فى ذلك العهد فى العالم كله ، وهو « ماكس رانيهارت » .. ثم الموسيقى بقيادة عظيم قادة العصر ، « توسكانينى » .. عمالقة فى الفن لا يجود بمثلهم الزمان ، رأيتهم بعينى ... ولكن المرض عاودنى فى سالزبورج ...

وتركنا جنيف لنذهبَ الى جبال الالب فى فرنسا . الى المصيف القديم فى قرية « سالانش » . حسب البرنامج الموضوع . لاطالع وجهها اليوم ونحن فى عام ١٩٧١ ، بعد غيبة طالت اكثر من ثلث قرن ... كنا قد طلبنا بالتليفون حجز حجرة فى نفس الفندق « الجبل الابيض » . ووصلنا فى المساء . وكان فى استقبالنا صاحب الفندق . ولكن الفندق لم يعد هو الفندق القديم ! .. اين الحديقة الصغيرة ؟ .. اين الشجرة التى كنا نجلس تحتها ؟ .. وما هذا المدخل ؟ .. وهذا البار ؟ .. وهذه الطوابق ؟ .. انه فندق كفندق المدن ... ونظرنا من نافذة حجرتنا فلم اجد الجبل المتوج بالجليد ، الذى كان يطالعنا منظره وانا افتح النافذة كل صباح .. بل طالعنى منظر شارع مرصوف بالاسفلت تمر فيه السيارات واللوريات ... واستبد بى الغضب فنزلت فى الحال اقابل صاحب الفندق واقول له : ما هذا ؟ .. اين الخضرة ؟ .. اين المراعى ؟ .. اين الاشجار ؟ .. انى ما جئت هنا لانزل فندقا كفنادق المدن .. فبدا لى انه لم يفهم .. فحدثته عما احمله من ذكريات قديمة لهذا الفندق .. يوم كان شيئا آخر .. فى بساطته البرية ... فادرك ما اقصد .. وابتسم وقال انه كان صبيا فى ذلك العهد .. ويتذكر فعلا فى صورة غامضة تلك الاحراش والمراعى

والبساطة . لكن كل شيء قد تغير ... وسالانش لم تعد كما كانت في الماضي ... ووعد ان يدلني في صباح الغد على فندق جديد خارج البلدة يتوفر فيه ما اطلب من مناظر .. وقام بالفعل بما وعد . وقادنا في اليوم التالي الى فندق في صورة شاليه من خشب الاشجار . واسمه بالفعل اسم نوع من الشجر له ثمر تحبه الطيور وتحيط به مناظر الجبال التي يتوجها الجليد . فرضينا ووجدنا فيه الراحة والمتعة . متعة الطبيعة الجميلة المريحة للاعصاب . ومتعة الحياة العصرية بجهاز التليفزيون الذي ينقل الينا حياة باريس وملاهيها ونحن في أعالي جبال الالب . ولكني جئت للذكرى . فأخذت اجوس خلال القرية . او تلك التي كانت قرية ، فاذا بها مدينة صغيرة . بها العديد من المقاهي والبارات والحوانيت والمحال الكبرى والتاكسيات والسينمات .. ورأيت الرافعات الضخمة شارعة في اقامة المباني للمصانع ... والعمال في كل مكان ... اذن هو التقدم . والتقدم هو البعد عن الطبيعة . وعندما سألت عن البلاج ... ولم يكن من الممكن ان اعرف بنفسي الطريق اليه . وقد تغير كل شيء .. فاستأجرت سيارة تاكسي . انطلقت بنا في طرقات مرصوفة بالاسفلت ... ووصلنا الى البركة القديمة فاذا بها قد سورت ، والدخول اليها بتذاكر ، واتخذت شكل البلاج فعلا ، بما وضع فيها من شمسيات كبيرة ملونة مرصوصة وسابحين وسابحات بالمايوهات . فرجعت . ولم اجد جدوى في تذكر شيء .. وطول الطريق ارى جديدا لم يكن موجودا ... فأبنية النوادي الرياضية تصادفنا في كل خطوة .. لكل الاعمار .. للاطفال والغلمان

والصبايا نواديهم وأمام الابواب مئات من الدراجات أجيال من الاطفال والشباب تبنى أجسامها بالرياضة ، لتحمل بناء المستقبل . وكيف ستكون أيضا صورة المستقبل فى هذه البلاد ؟ .. وأنا أبصر فيها اليوم الطائرات تمرق بين الجبال الشم غير حافلة بشموخها الجليل .. لا .. لم تعد فائدة فى تذكر الماضى هنا .. فلنعش الحاضر . وعشناه بعد أن يئست من العثور على شيء يبعث لى طيفا من أطياف ذلك الامس البعيد ...

قضينا فى الجبل ما استطعنا من مدة ، نرم صحتنا وننعم بتلك الطبيعة التى لم تتويد الانسان على المساس بصفائها ، حتى لم يبق من أجازتنا غير عشرة أيام أخيرة ، خشينا أن تفلت منا هنا قبل أن نذهب الى باريس . وذهابى الى باريس ضرورى . لان برنامجى يقوم على زيارة المكان الذى نبتت فيه « زهرة العمر » وأردنا قبل انتقالنا أن نحجز حجرة فى فندق باريس . فكان المستحيل بعينه . ظلت عاملة التليفون تطلب لنا فنادق باريس . فاذا الرد دائما : لا .. لاتوجد حجرة خالية .. كل فنادق باريس مشغولة . كاملة العدد .. واخيرا وبعد جهد وجدنا من يقول توجد حجرة واحدة فى فندق كبير يحوى مئات الحجرات . فسافرنا اليه فى الحال . وما كدنا نصل حتى قالوا لنا فى الاستقبال : الحجز هو لليلة واحدة فقط . وفى الصباح يجب اخلاء الحجرة . لانها محجوزة لغيركم بعد تلك . وها هى ذى أكوام البرقيات من مختلف البلاد للحجز . قلنا نريد أن نمكث فى باريس عشرة أيام . فضحكوا .. وقالوا لا يوجد اليوم فى باريس فندق يؤويكم طول المدة .

كل ما يمكن ان تاملوا فيه هو ليلة واحدة . وربما وجدتم ليلتين . وهل تلقون بنا وبأمتعتنا فى الطريق ، ومعنسا النقود ، وعلى استعداد لدفع ما تطلبون ؟ .. فلم يفد الكلام ولم تنفع المناقشة . باريس اليوم متخمة بالسائحين . من كل انحاء العالم . انها ملتقى الجنس البشرى كله .. ماذا تقدم للناس ؟ .. تقدم لهم حصيلة الحضارة الانسانية . مضغوطة فى مدينة واحـدة . انها كما كنت اقول وانا اشاهد الاموال تتدفق فيها ، رغم الغلاء الفاحش الذى فرضته على القادمين : انها تبيع الحضارة . باغلى الاثمان . فى الايام العشرة التى مكثناها فى باريس لم يقبلنا فندق اكثر من ليلة او ليلتين . لم نفتح الحقائب لكثرة انتقالنا بين الفنـادق .. والقلق يساورنا كل صباح . لا ندرى بأى مكان سنبيت . وهل سنجد السـقف الذى نمضى تحتـه الليل ؟ ! .. وسمم هذا القلق كل وجودنا بباريس .. فلم نستطع ان نحظى منها بما كنا نطمع . وقبل ان تخور عزيمتى وانا فى هذه السن ، سارعت الى زيارة مسكنى القديم فى شارع « بلبور » ، لانشـط ذاكرتى . كان مسكنى هذا فى عشرينات القرن ، مثـار دهشة وتندر بين اصدقائى يومذاك . فهو يقع فى حى منعزل من طرف بعيد آخر المدينة . كان ابعد من المقابر . المشـهورة فى باريس باسـم « بيرلاشيز » كان قطار المترو يمر أولا بمقابر بيرلاشيز قبل ان يصـل الى ميدان « جامبتا » . فأنزل فى هذا الميدان ثم أسـير على قدمى مشوارا طويلا قبل ان اصل الى شارعى المسمى « بلبور » . ما من مترو كان قد امتد الى هذه المنطقة . وما كان احد من اصدقائى قد وطأت قدمه هذا المكان . صديق واحد هو الدكتور حسين فوزى ،

كان يزورني هناك . وكان يقول لكل من يسأل عني : تصوروا انه ساكن بعد « القرافة » ! .. ما من مصري منذ رفاعة الطهطاوي الى اليوم قد سكن مثل هذا الطرف النائي من باريس .. !

كنت في اشد الشوق الى رؤية شارعي القديم هذا ونحن في عام ١٩٧١ .. فركبت المترو الى ميدان جاميتا كما كنت افعل منذ اكثر من خمسة واربعين عاما . فوجدت الميدان بالطبع هو الميدان ولكني لم اجد المطاعم التي كنت اتناول فيها غذائي . مطاعم ومشارب أخرى . وهذا طبيعي . واختلط على الامر في شأن الشوارع . أين الشارع الذي كنت اسير فيه طويلا حتى أصل الى « بلبور » ؟ .. لم أعرف .. واضطررت الى سؤال أحد الشرطة فدلني على الطريق . فسرت فيه مشواري . الى ان وجدت أخيرا شارعا كبيرا يسمى « بلبور » . ولكن لدهشتي ليس هو الشارع القديم الذي كنت اسكنه ... أعجب من ذلك انه الان ليس في وضعه السابق . فقد كان قديما في وضع أفقي . وهو اليوم في وضع رأسي . مختلف كل الاختلاف .. عبثا حاولت ان اتعرف على ملامح هذا الشارع الذي يحمل اسم (بلبور) ، انه شارع آخر لاعلاقة له على الاطلاق بالشارع القديم . اما فندقي الذي كنت اقطنه والموصوف في « زهرة العمر » فلا وجود له . بل لا وجود لاى منزل مما كنت أعرف في سالف الزمان . لقد تملكتني الدهشة . وسألت صديقي حسين فوزي ولا شك انه ذهب الى تلك المنطقة ورأى فيها ما رأيت . واني لادعوه ملحا ان يزورها في احدى رحلاته القادمة . وسوف يرى العجب ! .. لم تعد

هذه المنطقة بالنائية . فقد امتد اليها المترو . وأصبحت لهذا الشارع الصغير المتواضع شبه المجهول قديما ، محطة مترو الان تحمل اسمه ، وتليق باتساعه اليوم واهمية فى الحى كله . مترو بلبور ! .. ضاعت الملامح القديمة . وتغير كل شىء .. وتذكرت دعوة الاصدقاء فى شتاء هذا العام لزيارة شارع سلامة بحى السيدة زينب ، الذى جاء ذكره فى « عودة الروح » .. فذهبنا وكان معنا ايضا الدكتور حسين فوزى . واذا بنا نجد نفس المنزل ورقمه ٣٥ ، والشارع واسمه ووصفه كما كان بالضبط ... حتى المنزل المجاور بالشربية اياها ... ما من شىء تغير . أكثر من خمسين عاما . وكل شىء كما كان . وكان الزمن جالس امام باب المنزل يدخن النرجيلة .. !

ولكنى هنا فى شارع بلبوز حائر .. اسأل الناس وما من مجيب . مجرد السؤال نفسه يبدو مضحكا . انا نفسى انقلبت فى نظر نفسى الى شخصية روائية مضحكة . يتحدث عن اشباح . والعالم يموج حوله بالتقدم . والعمارات الشاهقة والاحياء الجديدة قد تجاوزت شارع بلبور الى مسافات بعيدة ومحطات اخرى عديدة للمترو قد تركته خلفها بمراحل مديدة .. وانا اقول كان هنا فندقى .. كان هنا بيتى .. فيبتسم لى المارة ويبتعدون . كأنى صرت احد اشخاص اهل الكهف . كيف يصبح المؤلف هو نفسه شخصية من شخصيات قصصه ؟ ! .. انى الاحظ احيانا هذه الظاهرة عندى .. يحدث لى عكس ما يحدث للاخرين . لقد اعتاد الكتاب ان يعيشوا الحياة أولا . ثم بعد ذلك يكتبونها .. اما انا ففى كثير من الاحيان اكتب الحياة

اولا ثم اعيشها بعد ذلك . ولذلك اصبحت اخاف ما اكتب .. خشية ان اكون اسطر بيدى مصيرى ...

تركت هذا الحى بماضيه وحاضره . وجعلت استجلى وجه باريس اليوم . ما اعرف منه وما اجهل : ان باريس ليست الماضي فقط ولا الحاضر فقط . انها الماضي والحاضر معا . انها الماضي الجميل الذى يجب أن يبقى ، والحاضر المتغير ، ليلائم التقدم . احياء قديمة باقية برمتها كما عرفتها من قديم . وتماثيل كانت شامخة وظلت شامخة .. بل وبعض دور المسارح والسينما لم تزل باقية فى اماكنها تحمل اسماءها المعروفة من مائة او مئات الاعوام .. ان التقدم فى بلاد الحضارة ليس معناه الهدم والازلة فى كل الاحوال ، بل ايضا معناه الترميم والاضافة . ولذلك نجد أحدث المسرحيات العصرية تعرض جنبا الى جنب مع المسرحيات الكلاسيكية او القديمة العهد . لذلك عجبت لعرض ونجاح مسرحية « الحلم » لستراندبرج ، وهى من مسرحيات أول هذا القرن . يعرضها الان مسرح الكوميدى فرانسيس . حرصت على أن اشاهدها ، لمعرفتى لها قراءة ، ولعجبى ان يفكر فى اخراجها أحد فى العصر الحاضر ، الذى يزخر باهتمامات اخرى تعكسها الاتجاهات الفنية المعاصرة . ولكن يظهر ان الحضارة الحقيقية مائدة حافلة بكل الالوان . وان التخلف هو تخلف المائدة فى عرض الالوان المختلفة . والاقتصار على لون دون لون . واطفاء شمعة لاشعال شمعة ، ومحو عمل لتقديم عمل .. وازالة حجر لوضع حجر ... وهكذا يبدو البناء الحضارى ناقصا ، ومائدة الثقافة عرجاء . نلاحظ ذلك احيانا عندنا فى مجال الفنون : فالمسارح كلها تقدم

لونا واحدا ، واتجاها واحدا ، وهى الكوميديا الاجتماعية الانتقادية . وهذا شىء طيب ولا جدال .. ولكن البناء الثقافى والحضارى المتكامل فى أى أمة راقية ، يجب أن يشمل الكلاسيك والروائع القديمة . لان الشعوب تتكون بنيتها الحضارية من عناصر الفكر الخالد على مر العصور . وتتماسك شخصيتها بالدسم والبروتينات والفيتامينات المختلفة الموجودة فى نتاج فكرها وفكر الانسانية فى مدارسها الخلاقة جميعا . لان شخصية أمة ليست عنصرا واحدا فى حلقة واحدة ، ولكنها جملة عناصر مختلفة تتكون فى حلقات العمر المتعاقبة ... لذلك كانت الكلاسيكية والواقعية والرمزية ونحو ذلك كله عناصر يتكون منها الفكر الحضارى كله . وأروع مافى كل عنصر فيها يجب أن يقدم ضمن الغذاء . وهو يقدم فعلا دائما بكامل أنواعه فى كل متحف من متاحف الفن التشكيلى ، وفى كل تاليف وفى كل عرض فى تلك البلاد المتقدمة جميعا من غربية وشرقية . لهذا كما قلت ذهبت الى الكوميدى فرانسيز اشاهد هذه المسرحية القديمة . وكانت تمثل بنجاح طول العام . فاذا بالمسرح مكتظ بالشاهدين فلم أجد محلا مريحا . وقبلت ما وجدت . ورفعت الستار من المنظر الأول وهو منظر ابنة الاله أندرا وهى تهبط من السماء الى الارض لتشاهد أحوال البشر . وكان منظرا رائعا : هذا الهبوط من السماء المزينة بالنجوم اللامعة وملابس ابنة الاله أندرا وتصميمها العجيب ، وحديثها مع أبيها وهى تلمح الارض بغاباتها الخضراء وجبالها الشماء وتدهش لجمال هذا الكوكب ، وأبوها يذكرها بمهمتها ويقول لها : اهبطى واسمعى وابصرى ثم عودى

لتخبرني هل شكاوى أهل الأرض لها حقا أساس تستند اليه ؟ !

وتمضي المسرحية في مناظرها المتعددة . وأنا أقول في نفسي : هذا حقا هو الاخراج . انه الشاعرية والايقاع ليس بالملابس وحدها ولا بالديكورات ولا المجموعات ولا بكل تلك الوسائل الفنية التي تبدو ذكية وبارعة . هذه الاشياء هي الكيان المادي للعمل الفني . ولكن يبقى ذلك الروح الكامن داخل هذا الكيان . كيف يمكن ابراز هذا الروح . انه ليس المعنى المستخرج من النص . انه ليس المضمون . انه ليس التفسير . انه شيء أخف وأشف . لا يمكن أن يلمس أو يمس . انه ينبعث . كالعطر أو كالضوء . انه ذلك الذي أسميه الشاعرية . . . وجدت هذه الشاعرية تنبعث أيضا من فيلم سينمائي هذه المرة . . . شاهدته في اليوم التالي في سينما بالجراند بولفار . فيلم عن قصة لتوماس مان اسمها « موت في فنيسيا » للمخرج الايطالي فيسكونتي . . كيف يمكن للسينما أن تصل الى الشاعرية . هذا سر هذا المخرج الموهوب . . . أمامي أشياء كثيرة في الفن والثقافة أريد أن أراها في الايام القليلة التي بقيت لي في باريس . لكن وأسفاه . . أصبت فجاة بروماتزم في مفصل ساقي اليمنى . . . حدث لي ذلك دون انذار . ولست أدري كيف حدث . ذهبنا لتناول العشاء في مطعم وأنا على أتم حال من الصحة . نظرت في قائمة الطعام فوجدت صنفا راقني اسمه سمك تروبت باللوز . والتروبت هذا سمك معروف وخاصة في أنهار الجبال . وكنت أطمع في اصطياد ولو واحدة منه في بركة « سالانش » فلم أصطد الا نفسي كما كتب طه حسين وهو يرى سنارتي

لم تشبك فى فم السمكة وشبكت فى ملابسى ! .. ولكن كيف يطهى سمك التروبيت هذا باللوز ؟ .. هـذا ما اردت أن أعرفه وأتذوقه . وطلبت هذا الصنف وأنا متردد . ترى هل سيكون هذا السمك طازجا ؟ وطمأنت نفسى بالجو البارد ووجود الثلاجات القوية . ولكنى لم ألبث أن رأيت الطاهى قد ظهر وفى يده شـبكة صغيرة أدلى بها فى حوض بجوارنا حسـبته لمجـرد الزينة ، واذا به عديد من أسماك التروبيت واستخرج بشبكته سمكة حية تتلوى وتتلعبط وابتسم لى قائلا : هذه سمكتك . وذهب بها ليلقيها حية نابضة فى الماء المغلى ، ويأتى بها الى فى طبق محشوة باللوز المقشور المبشور . وأكلتها بلذة ونهم . ومرافقى ينظـر الى ثم الى الحوض ويقول : « سبحان الله .. منذ قليل كانت هذه السمكة المسكينة حية تلعب مع أخواتها فى هذا الحوض ، فشاء حظها العاثر ان يوقعها هى فى الشبكة لتقدم اليك فى الطبق مسلوقة ! .. » ونهضنا منصرفين . فما كدت أبلغ باب المطعم حتى شـعرت بالوجع فى مفصلى . لا أريد أن اقول انه ذنب السمكة . ولكن هذا هو الذى حدث . وصرت امشى وأنا اتألم ... وباريس عندى هى السير .. السير وما من عصـــا فى يدى اتوكأ عليها فباريس لا تعرف العصى اللهـم الا عصى العميان البيضاء . أما بقية الناس فلا يحملون سوى المظلات عندما يهطل المطر . بلاد لا تعرف العصا ولا المنشة ولا المسبحة ... أيدى الناس طليقة . علامة الحركة والصحة والنشاط .

لكن ما الذى جرى للناس هنا ؟ ! رأيت أشياء لا أفهمها جيدا . دخلت احدى دور السينما القريبـة

من منطقة سكنى ، حتى لا أجهد ساقى . كان موضوع الفيلم العلاقة الجنسية بين الزوجين . فيلم تسجيلى . ولكنه طويل . اعتبر هو الاساسى ، والمعلن عنه اعلانات غطت الجدران . طبيب ويظهر أنه طبيب حقيقى يشرح العملية الجنسية لزوجين شابين ، جاءا يقولان له ان هذه العلاقة بينهما فى أول الامر لم تكن مرضية تمساما لجهلهما باسرارها . وهنا أخذ الطبيب يشرح لهمسا الأوضاع ، مستعينا بالصور والرسوم . ثم جاء الجزء الثانى من الفيلم فاذا به التطبيق العملى من الزوجين لما سمعاه وعرفاه من الطبيب . فظهرا عاريين يمارسان هذه العلاقة فى اتم واكمل وجوهها ... العجيب فى الأمر عندى كان هو الجمهور المشاهد من حولى . لم تصدر عنه حركة ولا همسه ولا ضحكة ولا سعلة . سكون مطبق وصمت رهيب . كما لو كان حقا فى قاعة محاضرة علمية . قلت فى نفسى ربما اخذ الامر هـذا المأخذ ما دام فى الموضوع طبيب حقيقى يشرح ... ولكنى صادفت فى الحى سينما أخرى تعرض فيلمـا بعنوان « الزواج الجماعى » .. ليس هو بالفيـلم التسجيلى وليس فيه طبيب . انما هو موضوع روائى . جماعة من الازواج الشباب ، اتفقوا فيما بينهم على أن يعيشوا معا فى حياة مشتركة ، وأن يتقاسموا كل شىء فيما بينهم ، وأن يناموا فى حجرة واحدة ، ونساؤهم مشاع لمن شاء منهم . للزوج أن يعاشر ما تروق له من زوجات زملائه . والزوجة أن تختار ما تريد من أزواج زميلاتها . كل ذلك بالرضا التام من الجميع . وكان الامر رغيف خبز تتناوله الايدى والافواه ... ثم شاهدنا هذه العلاقات الجنسية تتم أمامنا بـكل تفصيلاتها التى تخدش الحياء . ولكن الجمهور ..

الجمهور يا ناس .. هذا هو موضع عجبى الحقيقى .. نفس التصرف .. السكون المطبق والصمت التام .. لا همس .. ولا تعليق .. ولا ضحك ... ولا حتى تنفس يسمع ... وخرجنا ونحن نكتم ما بنا وننديج فى صفوف هذا الجمهور وهو خارج من القاعة ، علنا نسمع منه نكتة أو اشارة أو تلميحة الى ما شاهد منذ قليل ... لا شيء ... وكأنه خارج أيضا من قاعة جامعة ... كيف نقابل الجمهور باحترام ما يبدو لنا أنه غير محترم ؟ ! وتشككنا فى معنى ما شاهدنا . وقلنا لعل هذا الجمهور فهم شيئا آخر .. ولكن ماذا والعملية أمامنا لا تقبل أى تفسير ! .. « هل الموضوع فى ذاته لا يهم ؟ والمهم نظرتك له ؟ ! » كنت ادخل على المرحوم الدكتور سعيد وهو فى معامل تحليله بالصحة .. وعينة من عينات البراز أمامه يعكف عليها بحرص .. فأشمئز وأتأفف واصب عليه وعلى عمله اللعنات فيقول لى : « اسكت ايش عرفك ! هذا شيء ثمين جدا » ... فالشيء الواحد فى نظرى يدعو الى التأفف والاشمئزاز وفى نظره يدعو الى الحرص والعناية! .. لكن ما هى وجهة نظر هذا الجمهور فى تقبله الرزين لمثل هذه المشاهد ؟ . لا تفسير عندى سوى أن جماهير هذا العصر العلمى فى بلاد العلم تريد أن تعرف كل شيء يتعلق بالانسان ، وأنه لا حياء فى العلم عندهم ... كان من الممكن أن افسر ذلك أيضا بأنه حب الدعارة .. ولكن ذلك كان يقتضى أن يكون هذا الجمهور المشاهد داعرا ، ويتصرف ازاء عرض مثل هذه المشاهد تصرفات تبدو منها روح الابتذال ، ولو بأسلوب مخفف أو مهذب . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . بل كان هذا الجمهور ينسج من حوله جوا محترما مفعما بالجدية ، أشعرنا

فعلا وصدقا كأننا فى قاعة علم لا فى صالة لهو ... وجعلت أفكر فى الامر مستعرضا ما سبق من حضارات كبرى فوجدت بعض التشابه . ان سمة الحضارة فى كل عصر هى البحث عن الحقيقة ، ولا حياء فى البحث عن الحقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالانسان ويتصل بأسباب وجوده المادى والروحى . فكانت فى حضارة مصر القديمة والهند ترسم وتنحت فى المعابد بعض الاعضاء التناسلية رمزا للحياة . كانوا يعرفون اذن هم أيضا أن « لا حياء فى الدين » ... بل ان الشعر العربى القديم وكتب الادب لمثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما تتحدث عن الطعام . وكانت أكثر الكتب الادبية لا تكاد تخلو من باب للاطعمة وباب للحياة . وما كان أحد وقتئذ يرى فى ذلك بأسا أو حرجا .. ولكن يظهر أنه عندما تأخذ الحضارات فى الانحطاط تكثر المحظورات ، وتسدل البراقع على كثير من الموضوعات ، الى أن تمتد الى روح المعرفة نفسها وعادة البحث فتصيبها بالشلل . وبهذا يقتل العلم وتنحسر الحضارة ... ليس معنى هذا هو فتح الباب فجأة للجنس الصريح أمام جماهير لم تتهيأ بعد لتقبله بمعنى مرتفع . فان فتح النافذة فجأة أمام صدر مريض طال نومه قد يصيبه بصدمة أو علة .. ولكن المطلوب هو الاعداد الطويل المدى لدخول الهواء الطلق . وذلك بتعويد الناس شيئا فشيئا على احترام البحث الحر ، وانفساح الصدر لمناقشة الحقائق الحيوية ، وعدم التهيج والتعصب واقفال النافذة بعنف أمام من يريد ادخال نسمة صغيرة ... اضافة أخرى لتفسير السلوك الوقور لهذا الجمهور أمام هذه المشاهد . هى أنه كان ينظر اليها ليس فقط باحترام بل باهتمام . ولماذا الاهتمام ؟ .. اذا

ذكرنا أن من سمات الحضارات كذلك : الاتقـان ، ازددنا فهما للامر . لان الاتقان هو المكمل أو النتيجة لحب البحث . فأنت لكي تتقن شيئا لابد أن تعـرف أسراره ، ولكي تعرف أسرار لابد أن تبحث . ومن يلاحظ الحضارة الكبرى للعالم اليوم في الغرب والشرق يجد هذه الظاهرة : لا يمكن ان يغتفر لأحد صغر أو كبر ما نسميه « الطصاقة » أو « الكفاءة » او العمل بالمصادفة او بالبركة أو حيثمـا اتفق . كل عمـل يجب ان يكون متقنا . وكأنهم هناك عرفوا الحديث الشريف : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .. ولذلك كانت صناعتهم الكبرى المتقنة التي تغـزو الأسواق ، بما عرف عنها من اتقان .. حب الاتقـان او عادة الاتقان لكل شيء .. تدفعهـم اليوم الى ان لا يتركوا شـيئا للمصـادفة ، وان يعـرفوا أسرار ما يمارسونه من أعمال ، وأن يمزقوا كل حجاب يحول بينهم وبين معرفة هذه الاسرار .. والحياة الجنسية هذه ظلت قرونا تعتبر خطيئة ، ثم وضعت في الظلام وهي في نفس الوقت من الصق الاشياء بحياة الانسان ، ومن اشدها تأثيرا في وجوده .. فما دامت لها هـذه الأهمية ، وهذا الاثر كيف اذن نترك أسرارها بلا بحث يؤدي الى اتقان . فمنطق الحضارة اذن يقضي بأنه اما أن يصرف عنها النظر ولا تمارس وتترك للظلام ، واما انه لا سبيل الى تركها ، وان ممارستها من ضرورات الانسان .. وعندئذ يجب أن تعالج وتدرس وتتقن الاتقان الذي يبذل في صناعات اقل اتصالا بتصميم الانسان ، فلا نجعل ممارستها رهنا بالظروف والمصادفات والجهل والاشاعات .. بل تعامل معاملة غيرها من وجوه النشاط الانساني في هذا العصر العلمي ، الذي يضع كل ما يمس

الانسان تحت أشعة الضوء الكاشف ، ويزوده بالخبرة التى تنفى الجهالة ، وتكفل له الوصول بكل ما يهمه وينفعه الى ما يمكن بلوغه من كمال واتقان ... ان كلمة الاتقان لها عندي قيمة كبرى ، وفى مفكرتى الصغيرة التى لا تفارق جيبى اضع الحديث الشريف الذى يحض على اتقان العمل . لان هذه الكلمة هى أساس التفوق الحضارى . بل هى أساس ثروة الامة فى كل انتاج صناعي أو علمي أو فني أو معنوى .

وعلى ذاكرتى صورة صغيرة قديمة لاتقان الشخص فى عمله وما يمكن ان يجنيه المجتمع معنويا من ذلك . هى صورة لصاحبنا الدكتور سعيد أيضا . كان على الرغم من هذه الظاهرة ، من اشد الناس تمسكا بالدقة والاتقان . عين مديرا لمستشفى الكلب ، فجعل من هذه المستشفى نموذجا فريدا فى النظام والنظافة والدقة . وذاع امر هذا المستشفى بين المسئولين ولم تكن قد انشئت فى ذلك الوقت وزارة الصحة . بل كان الموجود مصلحة الصحة وتتبع وزارة الداخلية فكان اذا وفد على مصر زائر كبير من الحكام الاجانب او كبار الاطباء او العلماء فى الخارج قادوه الى زيارة مستشفى الكلب اولا حتى يخرج بأثر طيب عن مستشفياتنا .

وكانوا يسألون الدكتور سعيد كيف استطاع ان يجعل من هذا المستشفى لؤلؤة مضيئة من النظافة والنظام ؟ .. وكان الجواب معروفا . انها الصرامة فى الدقه والاتقان . كان يمر كل صباح فترتجف لمروره قلوب مرؤوسيه . وأولهم كبيرة الممرضات الانجليزية . كان يتحداها دائما بقوله : هل انت متأكدة من ان كل شىء نظيف وعلى ما يرام ؟ .. فتجيبه بمثل تحديه :

« اذا استطعت يا دكتور أن تجد ذرة تراب واحدة فى اى مكان فلك ان تتكلم » قال لى مرة أنهاغتاظ لتحديها وأراد ان يكسر غرورها ، فلما لم يجد حقا ذرة تراب ظاهرة فى أى حجرة أو ردهة ، زحزح خزانة ملابس لاحد المرضين فظهر خلفها تراب عالق بالحائط ، فمر باصبعه عليه ونظر اليها مؤنبا فخجلت ، ولم يعد يجد فعلا بعد ذلك ذرة تراب لا فى الظاهر ولا فى الخفاء ... ولاحظ ان ارانب التجارب فى المعمل يختفى منها زوج كل أسبوع . فسأل المرض المسئول عن المعمل وحيواناته ، وضيق عليه الخناق فاعترف بانه فعلا يأخذ كل اسبوع زوجا من هذه الارانب ليطبخه على ملوخية ! .. فاطبق بيده على عنق المرض صائحا : ملوخية يابن الـ ... ودفع به الى المرحاض وزج براسه فيه وشد عليه السيفون ! . والمرض يصرخ ويستغيث . ثم جذبه بعد ذلك وذهب به الى قفص النسانيس وحبسه فيه طول يومه . ثم اخرجه على ان لا يعود الى مثلها . ودفع اليه بجنيه من جيبه قائلا له : « عندما تطبخ ملوخية قل لى وأنا اعطيك ثمن الارانب . أما سرقة حيوانات المعمل فلا يمكن ان اسمح به أبدا » . كان صارما قاسيا فى العمل ولكنه مع ذلك كان كريما محبوبا من مرؤوسيه . كان مرهوبا ومحبوبا فى نفس الوقت .

وفكرت الحكومة بعد ذلك فى انشاء معمل للامصال فراوا ان يسندوا اليه ادارته مع ترقيته ، وهو المستحق للترقية فى نظر الجميع لبحوثه العلمية وكفاءته الادارية . وكنت انا أول الفرحين بذلك ! واذا به يعود الى كاسف البال ويقول لى انه رفض الوظيفة الجديدة . لماذا ؟ .. « لان المسئولين هازلون .. يسمون هذا معملا للامصال

.. خمس زجاجات وعشر أنابيب اختبار وثلاثة بوابير جاز ! .. ولا شيء في الميزانية غير درجة المدير .. هذه هزليات . وأنا اعتدت على العمل الجاد .. » ونصحه كل زملائه ومحبيه أن يقبل الان الدرجة والترقية . وهو يستحقها من سنوات . وهذا ولا شك ما راعاه المسئولون وقصدوه . اما العمل وانشاء المعمل كما يريد فليتركه لله وللغيب . فرفض واصر على الرفض فهو لا يهتم بدرجة ولا ترقية . ان الذى يهمه هو العمل الذى يستطيع أن يتقنه ... وتلك كانت كلماته ...

باريس فيها كل شيء . كل ما تستطيع أن تتصوره موجود فى باريس . انها معرض العالم ومتجر العالم . شيء واحد تأكد لي بعد البحث انه غير موجود فى باريس هو رباط عنقى . فأنا منذ أكثر من عشرين عاما لااستعمل أربطة العنق المرونة التي يعقدها الشخص بيده . وعندى انواع من هـذه الكرافتات اهديت الى فلم استعملها . نوع واحد هو الذى اعتدت عليه من قديم . هذا النوع العقدة فيه مربوطة جاهزة . وما على أنا الا ان اعلقها فى عنقى تعليقا . انه النوع الذى يسمى فى مطلع القرن بالبمباغ . والبمباغ نفسه أنواع . منها النوع الذى كان يلبسه الشاعر شوقي . وهو على شكل « فيونكه » . أما ذلك الذى البسه فهو على نحو الكرافته . بل هو كرافته فعلا ولكنها معقودة اصلا . وكنت قد اشتريت عددا منها منذ اكثر من عشر سنوات من باريس نفسها واحتفظت ببطاقة مطبوعة باسم مصنعها . فلما أردت اليوم ان اشترى هـذا النوع لم أجد وقيل لى أخيرا اطلب بغيتك فى محل كبير مثل لافاييت ربما تجد ... ودخلت هذا المتجر الهائل . وكان معى مرافقى فما كاد يخطو خطوات فيه ويرى معروضاته حتى زاغ منه البصر ، واختطفتـه ألوان البضائع الخلابة ، فانفلت من يدى ، ومرق بين الاروقة والاقسام والمصاعد والسلالم الالية ، وانا الاحقه بساقى التي تؤلمنى وهو كالمنوم او المجذوب بقوة سحرية تغريه بالشراء . ولكن الحيرة تتملكه . ماذا يأخذ وماذا يترك كل شيء له ذوقه وطابعه وجماله . ويطول تردده ويزداد لفه ودورانه وجريه فى كل مكان الى ان فطن الى تعبى وانا اجرى خلفه . فرأى ان يجلسنى فى مكان ، ويمضى هو على راحته يتفرج على كل معروض ويتخير ويفحص

ويناقش كما يحلو له . ويبحث لي عن مقعد . فلم يجد لا أحد هنا يجلس . الزبائن فى حركة دائمة ومرور لا ينقطع وكر وفر لا ينتهى صعودا وهبوطا من كل الطوابق . وأخيرا وجدنا فى قسم ملابس الاطفال مقعدا صغيرا — لا ندرى أهو للعاملة البائعة أو للطفل الزبون ليجلسوه اذا ارادوا ان يلبسوه ثيابا . فما كدت أرى هذا المقعد خاليا حتى ارتميت عليه دون كلام . ورأت البائعة ما بى من تعب فتسامحت وانطلق المرافق واختفى فى هذه الغابة الخلابة . والتفت حولى فوجدت نفسى بين تماثيل من الشمع للاطفال فى ملابس الصيف والبلاج . ويظهر أن مابى من اجهاد قد سمرنى فى مقعدى فجلست بلا حراك وكأنى أنا الاخر تمثال من الشمع . ولم افطن الا وبعض الزبائن يحملقــون فى وجهى . وبعض الاطفال يقترب منى ويلمسنى ليتأكد من حقيقة أمرى . وبدا عليهم التساؤل : ما الحكمة فى وضع تمثال رجل عجوز بين تماثيل الاطفال ؟ ! من الزبائن من قد يكون فسر ذلك لنفســه بأن هــذا منطقى : وجود رجل يمثل الجد بين حفدته من الاطفال ، وهو مبتهج بملابسـه الجديدة ! .. رأيت بعد ذلك أن اتحرك طول الوقت حتى اقطع الشك باليقين ... ويعلم الناس انى من لحم ودم . ولم تكن البائعة صاحبة المقعد حاضرة طول الوقت . فقد كان شغلها يمتد الى قسم آخر مجاور .

ولكنها عندما كانت تمر بى وترانى جالسا متحرجا من شغل مقعدها وقتا طويلا ، واحاول الاعتذار ، تبتسم متسامحة وتفهمنى أنها تدرك ما بى من حاجة الى الجلوس والراحة ... وظهر آخر الامر مرافقى يحمل بعض المشتريات ويقل انه يرجىء الباقى للغد . فأصبح :

ايوجد ايضا غد ؟ ! . فيقول لى فى غمز ولمز : وماذا يضيرك فى هذا ويتبعك ؟ عنـدك المقعد تجلس عليه والبائعة الشابة الحسناء تغازلها ؟ » اغازلها ؟ ! . سبحان الله ! فتاة فى العشرين .. فى سن بناتنـا وحفيدتنا ! .. وانت نفسك الذى اخترت لى هذا المقعد! .. ومع ذلك فانا لم افكر فى نفسى حتى الان . ولا فيما جئت من اجله ... رباط عنقى .. بمباغى ! ..

وقمنا نسال فى قسم الكرافتات فلم نجد بالطبع . وقيل لنا ان هذا شيء غير موجود . فاخرجت البطاقة المطبوعة باسم المصنع الباريسى الذى يصنع هذا النوع فابتسموا وقالوا ان هذا المصنع قد كف عن صنع هذا الطراز منذ زمن طويل . وعقبت احدى البائعات بقولها وهى تضحك : ايوجد اليوم من يكسل من عقد ربطة عنقه بيده ؟ ! . وقالت اخرى : العالم مقبل على عصر قد تختفى فيه الكرافتة كلية . وكذلك العمال ... وسوف تطرح ويستغنى عنها وتظهر انماط اخـرى من الملابس الملائمة لروح العصر ... فاصرف نظرك يا سيدى عن هذا الطلب ... وخرجت من المحـل يائسا ... ماذا عساى اصنع ؟ وماذا البس عندما يبلى هذا البمباغ الاخير الذى بقى لى .

لماذا لا استغنى عن رباط العنق اطلاقا ؟ .. ولكن هل لى من الشجاعة ما يجعلنى فى مثل سنى اخرج بدون كرافتة ؟ ! يا للخجل ! .. انى اعرف احيـانا الشجاعة فى اشياء اكثر من ذلك خطورة واهمية ! .. ان العادة تشدنا . والتقاليد تتحكم فى تصرفاتنا . حتى

فيما نوقن أنه عديم الجدوى . طوبى للشباب القــادر على التحرر مما يراه غير ملائم . واذا كنا نحن الشـيوخ غير قادرين على التحرر من رباط عنق لا فائدة فيه ، فلماذا نريد من شبابنا الاستمرار فى خنق أعناقهم بهذا الرباط ؟ ! .

ان شباب باريس كما أراهم أمامى اليوم قد حسموا القضية فيما يظهر وانتهى الامر . فهم اختاروا لانفسهم المظهر الملائم فى رأيهم للعصر . كما انتهوا الى اختيار الشعر الطويل المرتب شكلا لرؤوسهم . وأصبح هذا الشكل مقبولا رسميا فى أعمال الدولة . فقد شاهدت مذيعى التليفزيون فى شعور طويلة مرتبة وهندام نظيف لم يعد الشعر الطويل اذن وقفا أو رمزا للضياع . ولكنه أصبح شكلا عاما للرأس ، نراه عند العاملين النافعين من شباب ناهض وناضج وبعض الكهول وحتى الشيوخ . أما الشعر القصير فله أيضا طلابه ومحبذوه كل حسب ما يلائمه . وهذا وذاك رأيته جنبا الى جنب فى باريس . فى البنوك المتاجر . المصالح . البريد . التلغراف . . . كل الاماكن الرسمية نجد الموظفين فيها بشعور طويلة وقصيرة على السواء . ما دمت أنت نظيف المظهر فلا انتقاد لاحد عليك . وتســتطيع أن تكون موظفا أو عاملا وتعامل بكل احترام . .

وعدنا الى فندقنا كى نجد فى انتظارنا العذاب المعهود صاحب الفندق يذكرنا بأن مدة اقامتنا تنتهى اليوم . وعلينا أن نبحث عن فندق آخر . يالله ! . . ونحن الذين كنا نأمل وندعو المولى سبحانه وتعالى أن ينســيه وجودنا . وكنا نخرج وندخل خلسة عن نظراته . . .

ولكن كيف ينسى والدفاتر امامه تسجل مواعيد الحجز والاقامة لجميع النزلاء . لو كانت المسائل هنا بالبركة لطعمنا فى السهو والنسيان . ولكننا فى بلاد كل شىء فيها يسير بدقة الساعة المضبوطة .. امرنا الى الله ! .. فلنحزم امتعتنا مرة أخرى ونبحث عن سقف نقضى تحته ليلتنا ... ورحم الله عهدا مضى كنا نطلب فيه الاقامة بالشهر فتستقبل بالحمد والترحاب ... ■

رحلة حول الشخصية المصرية

عندما نفارق بلادنا ، فان صورتها لا تفـــارق عيوننـــا .. وعندما كنت فى عشرينات هذا القرن اقطن باريس ، فى شارع ((بلبور)) ، هذا الذى ذهب اليوم رسمه وبقىَ اسمه ، كنت افتح نافذتى كل صباح ، فلا ارى أمامى باريس وحدها ، بل ارى ايضا مصر .. فى ذلك العهد .. .. وبالتحديد فى شهر يونيو سنة ١٩٢٧ ، كتبت قصة ((العوالم)) ، عوالم الفرح ، مستعيدا ذكرى ذلك الجو الذى تنفست فيه اجمـــل نسمات صـــباى .. جعلت استحضر ، وانا فى باريس ، ملامح الاســـطى حميدة الاســـكندرانية ، اول من علمتنى كلمة ((الفن)) .. واسطر كلماتها وهى مسافرة فى القطار مع افراد تختها لاحياء زفاف خارج القاهرة . كانت تودع الحاج محمد ((مطيباتى)) التخت أو متعهد حفلاته بالتعبير الحديث ، وتوصيه بلهفة والقطار يتحـــرك : ((حاج محمد ... يا حاج محمد .. شوف يا اختى نسيت أقول لك ... يادى الحوسة ... الارانب امانة فى رقبتك يا حاج محمد ... ما تنساش ترمى للارانب فوق السطح قشر العجور ... امانة عليك ... السيدة فى ضهرك ...)) .

« ... وتحرك القطار بين صياح افراد التخت .. واخيرا رفعت الاسطى حميدة راسها قليلا وتنهدت ، ثم قالت بتأثر : « يا حبيبتي يا مصر !! » ، وكان هذه الجملة كانت تعبر تماما عن احساس الجميع ، فأطرق الكل لحظة ... » الخ الخ ...

هذا نص ما كتبت في ذلك التاريخ البعيد ... ولم تزل الى اليوم ، والى الغـد ، والى كل زمان ، جملـة : « يا حبيبتي يا مصر » ، تعبر عن احساس كل جيل ...

وبعد أن فرغت من كتابة هـذه القصة ، ألقيت بها في درج مكتبي الخشبي البسيط الزهيد في تلك الحجرة المتواضعة من ذلك الفندق الذي اختفى اليوم مع بقية مباني الشارع الذي ضاعت معالمه على أهل هذا الجيل من سكان باريس ...

وزارني صديقي حسين فوزي ، كما اعتاد أن يزورني بين حين وحين في ذلك الحي النـائي المنعزل ، ولست أدرى ما الذي ذكرني بالقصة المهملة ، فأخرجتها من الدرج . وكان هو أول من اطلع عليهـا . وما أن قرأ عبارة : « ما تتساش ترمي للارانب فوق السطح قشر العجور » ، حتى ظهر عليه الحنين الى مصر . وقال لي :

« هذه الجملة فيها كل شهر مايو بمصر .. الحـر والعجور وعبد اللاوي » ... وسرح بفكره لحظة وكأنه يردد هو أيضا في أعماقه : « يا حبيبتي يا مصر » ... !

ما هي مصر ؟ .. تلك التي تشغلنا في بعدنا عنها أكثر مما تشغلنا في قربنا منها ؟! .. يبدو لحبنا لها أنها شيء بسيط جدا قد تبدو في أغنية أو زجل أو موال .. ونراها في البسطاء من أبنائها .. من أهل ريفها وحواري مدنهـا ...

هذا صحيح . ولكن هذا ليس كل شيء . انها ليست من الضآلة بحيث يمكن حصرها فى هذا النطاق الضيق . انها شيء عظيم جدا . ممتد فى الزمن ، متعمق فى الاثر . ان ما نسميه « مصر » ، جسما وروحا وشخصية ، يشبه الانسان العظيم ...

عندما نريد أن نحيط بشخصية انسان عظيم ، ماذا نفعل ؟ .. هل نبحث عنها فى مشاعره أو فى مباذله او فى تفكيره ؟ .. هل نحاول أن نراه وهو يعمل ويكدح ، أو وهو يغني ويطرب أو وهو يضحك ويهزل ، او وهو يصلى ويؤمن ، أو وهو يفكر ويتأمل ... ؟

فى حجرتى القديمة تلك ، سألت نفسى وقتئذ هذا السؤال ... وكنا خارجين لتونا من ثورة سنة ١٩١٩ ، وكل همنا البحث عن شخصيتنا التى نطالب باستقلالها ، وكانت اقرب الموارد الينا احياءنا الشعبية وريفنا ... الملاءة اللف والجلباب الازرق ... واتجهنا الى هذه الناحية بكل قوانا . بكل ما عندنا من حب ومن قدرة على خلق أو تصوير . ثم اتصلت بالحضارة فى هذه المتاحف والمعارض والجامعات وأخذت الكتب تتكدس فى حجرتى الصغيرة ، ولا اجد لها مكانا ، فتدفقت أكوامها على أرض الحجرة . وصرت أحبس نفسى ليلى ونهارى مع رغيف خبز طويل أحشوه بالجبن ، وأجعله غذائى طول يومى ، اقضم منه بين حين وحين ووجهى غارق فى الصفحات .. أن مفهوم الشخصية عند هذه الامم المتحضرة غير مفهومها عندنا . انها ليست فى ناحية واحدة من نواحى الامة ... انها فى مجموع هذه النواحى جملة . فيما هو فى القلب وفى الرأس معا . انها عند شعراء الريف الذين يكتبون بلغته المحلية من امثال مسترال ورماندل

وأوبانيل ، كما هي عند المفكرين الفصحاء من أمثال فولتير وراسين وباسكال . والعالم يعرف شخصية روسيا في أغاني الفولجا ، كما يعرفها في موسيقى كورساكوف وتشايكوفسكي ويراها في باليه البولشوى ذي الاصل الاوروبي الغربي ، كما يراها في الرقصات الشعبية . هذا التكامل هو الذي يطلعنا على كل الملامح . ويرينا الشخصية في مختلف أوضاعها . ان الشخصية ليست صفة جامدة ثابتة الا في الجسم الميت . أما في الجسم الحي ، أو القابل للحياة ، فهي صفة حية متحركة ، تتغير وتتطور تبعا لما تتلقاه من غذاء ومن تأثير . شأن الانسان الحي الذي تتكون شخصيته مما تتغذى به من أحداث وتجارب ومعارف في حلقات العمر المختلفة . ومصر الحية ، التي تتكون حلقات عمرها الطويل من تيارات فكرية شتى في عهود متباينة ، من الوثنية الى المسيحية الى الاسلام ، لابد ان تكون قد هضمت كل ذلك ، وشكلت منه بعض ملامح شخصيتها .
اذن لم تكن مصادفة ان أعود الى مصر لاكتب « أهل الكهف » المأخوذة عن القرآن في موضوع مسيحي ، وعن تفكير في الزمن وثني — فرعوني ! .. حبي لمصر انتقل اذن الى ناحية أخرى ، هي محاولة ربط حلقات هذه التيارات الفكرية في هذه العهود من عمرها المديد .. ثم جعلنا نناقش في الثلاثينات شخصية مصر على أساس جديد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، مختلف عن الاساس الذي كان معروفا بعد ثورة عرابي ، في مفهوم عبد الله نديم مثلا ، أو محمد عبده ... وكانت المناقشات تتخذ شكلا علنيا منشورا ، كتلك التي كانت مع الدكتور هيكل والدكتور طه ومعي ، أو شكلا خاصا شفويا مع اصدقاء كالدكتور حسين فوزي ، الذي نشر فيما بعد كتابه القيم

« سندباد مصرى » . وكنا كلنا متفقين فى الرأى والاتجاه . وان شخصية مصر هى فى تكامل ملامحها ومسار تفكيرها عبر القرون والاحقاب . ويظهر انه فى فترات الثقافة الكبرى تكون النظرة الى مصر هذه النظرة الكبرى ، فلا يكتفى برؤية ملامح مصر فى مجرد ازجال ومواويل وسامر ونكات ورقص بطن ، وينظر الى هذه الاشياء بسذاجة ، على انها الاصالة ، بل كانت تؤخذ كمنابع وحى لفن ارقى جديد بشخصية مصر الحية فى عصر جديد . ولذلك استخدمت الاساطير والفولكلور والف ليلة فى ادب الثلاثينات وفنه التشكيلى على النحو الذى استخدمه سترافنسكى وبارتوك ودى فايا للاغانى الشعبية الروسية والمجرية والاندلسية . ولو كان سيد درويش على ثقافة موسيقية مماثلة لفعل نفس الشىء . ولكن عبقريته اسعفته فى الاحساس والمضمون وقصرت فى الشكل والاسلوب . وقد فطن هو نفسه الى ذلك ، شأن الفنانين الحقيقيين ، واراد السفر الى روما لدراسة الموسيقى على اصولها ، ليملك القدرة الكاملة على استخدام احدث وسائل التعبير وادوات التطوير ، ولكن الاجل لم يمتد به ليحقق هذا الامل . ولو فعل وكان لابد فاعلا لظهرت ملامح مصر فى تلك الفترة مع تمثال مختار وجامعتها الفنية واضحة المعالم ، مستيقظة الروح ، متهيئة لنهضة حقيقية تتمشى مع عصر حديث وحقبة جديدة من حياتها المستمرة مدى العصور . . .

قال لى صديق فرنسى قابلته فى باريس ، انه لا يستطيع ان ينسى منظرا اثار دهشته فى مصر . شارع به جميع انواع المواصلات التى خلقها الله او صنعها الانسان ، المترو والترام وعربات الكارو والاوتوبيس والسيارات واللوريات والخيل والحمير والجمال

والدراجـات ، ولا ينقصه الا المراكب ... والزحـام لا يمكن وصفه . وبين السيارة والاوتوبيس شعرة . وبين الماشي والماشي لا شيء سوى البهدلة . أو بالاقل اتساخ الملابس اذا لم يأخذ الشخص منتهى حذره ... ولكن العجيب الذى استولى عليه هو رؤيته دراجة عليها شاب يحمل ثلاثة طوابق من الخبز ، بيد واحدة ، وباليد الاخرى يمسك « بجودون » الدراجة . ويمرق بما يحمل بين هذا الزحام مروق السهم دون أن يفقد التوازن فحسبه نجما من نجوم السيرك ، وسأل كم يتقاضى على ذلك ، فقيل له ثلاثة جنيهات ، واعتقد انها فى اليوم الواحد طبعا . فلما علم انها فى الشهر ، كاد يصعق ... ولكنه لم يلبث أن رأى ما هو أعجب .. شخص آخر على دراجة هو الاخر ، يحمل عليها عجلي جاموس .. كل رأس عجالى معلق على طرف من طرفى مقعد الدراجة . أما المصارين والكوارع والجلود فتتدلى من الوسط . وبقية الذبيحة مبقورة البطن موضوعة افقيا خلف مقعده ، تظهر منها الكستليتة وبيت الكلاوى . أما الكرشة والفشة والكبدة والطحال وخلافه فهى مربوطة فوق أكتافه . وهو أيضا يمرق بحانوت الجزارة هذا الذى يحمله على الدراجة مرور السهام بين كل الزحام دون أن يمسه سوء ! .. العجيب ان هـذا الفرنسى لم يكن يتحدث عن تلك بروح الانتقاد ، بل بروح الانبهار . قال : تصور ان هذا يحدث فى باريس ... فقاطعته بقولى ان باريس لا يمكن ان يكون فيها شارع بهذا الشكل . وحسب وصفه أدركت انه شارع « الجلاء » ، فهو الذى تتجمع فيه كل أصناف المواصلات، وفى كل مرة نسلكه ، نبتهل الى الله ان يخرجنا منه سالمين . كما ان شوارع باريس لا تسير فيها الدراجات .

ولم اشاهد طوال اقامتى فيها دراجة واحدة فى شارع من الشوارع . فى الريف نعم . لقد رايت الدراجات فى الجبل . اما المدن الكبرى فلا تسمح هناك بغير السيارات والاتوبسات . اما الدراجة وغيرها مما يعرقل المرور فلا ... ولكن الفرنسى قال : افرض فرضا ان دراجة مرت بمثل هذا الحمل ... قلت يعترضها بوليس المرور ويمنعها فورا . قال انت لم تفهم قصدى . افرض ان دراجة مرت فى شارع بباريس على هذه الصورة ، انها تصبح أعجوبة . وتتناولها كاميرات التصوير ، ويصطف المارة على جانبى الشارع يشاهدون ويصفقون . الا تدرك ان فى مثل هذا العمل من المهارة ما يثير الاعجاب . ومع ذلك فالمارة عندكم لا يلاحظون ذلك ، ولا يحفلون به ... الواقع أن الاوربيين شديدو الملاحظة لما عندنا من مهارات ... فى اثناء الحرب العالمية الثانية ، كنت أقطن بانسيون ، ينزل معى فيه ضابط من كبار الضباط الانجليز . وكانت تجمعنا مائدة العشاء ... كان دائم الحديث عن عامل مصرى فى الجيش فى قسم الصيانة ، بعين واحدة . كان يذكر مهارته الفائقة فى الصناعة الدقيقة ، ممـا جعل الانجليز يحلو لهم مشاهدته وهو يعمل ، ولا يتصورون وجود عامل انجليزى يستطيع تأدية هذا العمل الدقيق بمثل هذه المهارة . وكانوا يرددون فيما بينهم : « هذا الرجل ذو العين الواحدة ! » وقد أصبح عندهم اسطورة .. !

هذه أمثلة بسيطة تحضرنى ، ولها الوف من النظائر . وهى تدل عندى على أن مصر عندما تفقد قوتها الفكرية لسبب من الاسباب ، أهمها الاحتلال الاجنبى الطويل ، فانها لا تموت . لانها لا تعرف الموت . ولكنها تعوض ذلك فى الحال بالمهارة اليدوية ...

من ابرز الملامح لشخصية مصر ، انها تستطيع ان تجمع الايمان والعلم والفن فى شخص واحد ، أو عمل واحد ، أو مكان واحد ، على نحو عجيب . نرى ذلك منذ حلقات عمرها الاول فى العهد الوثنى ـ الفرعونى . فالهرم يجمع بين الاعجوبة العلمية الهندسية الرياضية الفلكية ، بل أيضا التكنولوجية الاولى فى رفع احجار بهذه الضخامة ، وبين الشكل الفنى ، وبين الايمان الذى دفع اليه وقام خلفه ... وجاء العهد المسيحى ، وظهرت الاديرة وفيها المكتبات والعلوم والايقونات واللوحات والمخلفات الفنية ثم الايمان الذى يضىء كل الاركان ... واخيرا العهد الاسلامى ، وفيه تتضح هذه الملامح على ابرز وجه . فالمساجد آية فى روعة الفن وجمال الزخرف ، وفيها حلبات الدرس وجلة العلماء العاكفين على أحياء العلم ، بكل فروعه المعروفة فى عصرهم من فلك ورياضيات ومنطق وطب ، وكل ما يحرك العقل ، وهذا جميعه مع الايمان الذى يعمر القلب .

ان مصر فى حالة يقظتها ونهضتها تتخذ حضارتها دائما شكل الحضارة الكاملة الجامعة لكل العناصر . انها ليست على غرار الامم التى تتخذ فيها الحضارة شكل الموجات ، ففى عهد تطغى موجة الايمان ، وفى عهد تطغى موجة العقل ، عصر للروح وعصر للمادة ... مصر لا تعرف ولم تعرف فى أى حلقه من حلقات عمرها الطويل حضارة الموجات . بل حضارتها دائما حضارة التكامل وتجميع العناصر .. الروح والمادة معا .. الدين والعلم والفن معا ... فاذا تركنا الامة كمجموعة ، ونظرنا الى الفرد ، الى الانسان المصرى فاننا نجد تركيبه هو نفس التركيب .. وكأن ملامح الفرد صورة لملامح

امته ، او كأن ملامح امته تعكس صورتها عليه .

واوضح مثل عندى لانسان مصرى يجتمع فيه العلم والدين على نحو اثار عجبى ، هو ايضا الدكتور سعيد ، الذى اتناوله هنا كثيرا بالاشارة ، لطول مراقبتى له منذ لقائنا الاول فى باريس العشرينات الى ان توفاه الله فى قاهرة الخمسينات . كان على قدر علمه وتعمقه فى بحوثه العلمية متعمقا فى الدين ، كثير الذكر للقرآن والاستماع الى تلاوته . وكان يذهب فى ذلك مذهب التعصب ... يقبل المناقشة بصدر رحب واتساع افق فى العلم والمعرفة وكل شئون الدنيا ، اما الدين فلا يقبل فيه المناقشة ويؤمن به ايمان العجائز . وكنت احيانا أحاول استدراجه الى الجدل العلمى فى موضوع الايمان . فاقول له أن العلماء امثاله عندما يتبحرون طويلا فى ابحاثهم عن اسرار الطبيعة ، فانهم ينتهون الى مجاهل تدفعهم الى الشعور بوجود الخالق الاعظم والايمان به . وها هو ذا اينشتين يقول فى ذلك هذه الكلمة المبرة : « انى أدين بأعمق التقديس لهذه القوة العجيبة التى تكشف عن نفسها فى أصغر جزيىء من جزئيات الكون ! » ، فيضحك منى الدكتور سعيد ويقول ساخرا : « اتريد ان تجعلنى أؤمن بالله ايمان صاحبك اينشتين هذا ؟ .. لا يا سيدى ... أنا لا أريد ان أؤمن بالله عن طريق العلم ... علمنا هذا ... دع العلم فى ناحية والدين فى ناحية . لا اريد الخلط بينهما .. اريد ان أعيش معهما معا . كل واحد بصفاته . كمن يعايش ويحب امرأتين معا . كل واحدة بصفاتها » ...

وهكذا يسكتنى . ولكن يبقى تعصبه وتشدده . وهو ما يضايقنا أحيانا . جلس معنا ذات يوم صديق أراد ان يرضيه ، فقال له انه الان يصلى ولا يترك فرضا

ولا نافلة . وان الصلاة لها فوائد كثيرة . وقد لاحظ انها افادته فى تنشيط عضلاته . فما كان من الدكتور سعيد الا ان صاح به : « ما شاء الله ! .. اتاخذ الصلاة على انها العاب رياضية ؟ ! » . وعاصرت حادثة اثارها ذات يوم من أيام الحرب العالمية الثانية . كان يقطن شقة فى الطابق الاول من عمارة بالزمالك ، اخلتها السلطة العسكرية الانجليزية لتسكن بها كبار الضباط الانجليز . وكانت شقته هى الوحيدة التى تركت بغير اخلاء لصغرها وقربها من رصيف الشارع ، فبقى فيها . وكان يحلو له ان يفتح الراديو على آخره ليستمع الى المقرئين يتلون القرآن . وكان خبيرا باصواتهم واساليبهم فى الاداء ، يرقب ويصنف فى درجاتهم من الاجادة بدقة العارف المتمكن . ولم يكن يهمه راحة الاخرين ولا مزاجهم كان يضع الراديو بجوار نافذة مطلة على منور مفتوح على كل الطوابق . فكان صوت القرآن يدوى فى العمارة كلها ، ويتركه فى جوف الليل يجلجل فى آذان الصاحى والنائم .. وفى ذات ليلة ، وقد ضج الضباط الانجليز من ذلك ، صاحوا به من المنور : « كفاية ! .. كفاية موسيقى .. ! » . فما كان من الدكتور سعيد الا ان نهض فى الصباح وكتب بالانجليزية التى يحسنها خطابا الى قائد القوات الانجليزية ، وخطابا آخر الى المندوب السامى البريطانى ، يقول فيهما أن الضباط الانجليز الساكنين معه فى العمارة يمنعونه من مباشرة شعائره الدينية ويسمون القرآن الشريف موسيقى . !واذاالقيامة تقوم ! .. وخاف المسئولون الانجليز أن تستيقظ فتنة دينية فى البلد وروميل على الابواب . فانهالت عليه خطابات الاعتذار . وزاره ضباط العمارة يبدون اسفهم .

وجعلوا يسترضونه بكافة الوسائل . فما كان يمضى يوم دون أن يهدوا اليه أجود أنواع الجبن وصناديق البسكوت ، وعلب المربى الفاخرة ، والخبز الافرنجى الابيض الذى كانت تجهله القاهرة وقتئذ ... فكنت أسأله ان لا ينسى أصدقاءه ، وأنا أولهم . فيعطينى نصيبا من الهدايا ، وأنا اقول له مازحا : « زدنى خيرات من بركات القرآن ... ! » . فكان ينظر الى من طرف عينه فاحصا يختبر درجة ايمانى ... وأنا أقسم له انى مؤمن بالله . فكان يصدقنى ويقول : « أعرف انك مؤمن . ولكنك احيانا عندما تفكر ... » فأطمئنه قائلا : « انها أجهزة ركبت فينا ولا حيلة لنا فيها ... اذا أدرت مفتاح الراديو سمعت صوتا ، واذا أدرت مفتاح الكهرباء رأيت ضوءا .. وأنا أعمل بالجهازين معا . وهذا فى دمى .. لانى مصرى عمرى أكثر من خمسة آلاف عام ... أما غيرنا فى حضارات أخرى ، فأحيانا يعطلون جهاز الروح والقلب فلا يسمعون صوته ويكتفون بجهاز المادة والعقل ويبصرون ضوءه ... » .

ويبدو على الدكتور سعيد الاقتناع بهذا التشبيه . وان لم يكن يرتاح كثيرا الى الكلام المنطقى من أمر الدين . انه يريد منى ايمان العجائز ، فى كل حين .. وأنا لا قبل لى بذلك فأنا متى بدأت التفكير لا أضمن الى اين ينتهى بى . ولكن الايمان الذى يريده يأتى عندى تلقائيا . بلا تفكير . كما ان التفكير يأتى بلا ايمان . كل فى منطقته .. وكنا نسير معا أحيانا فى الطريق ، ونعرض لموضوع دقيق فأنطلق متحدثا على حريتى ، أقلب الامر على كل وجوهه ، تاركا آلة التفكير تعمل بغير حدود . فيصدم ويصيح بى صيحته المعروفة : « اسكت

يا زنديق ! » .. فلا احفل به واستمر لارغمه على سماع ما يريد وما لا يريد ، ما دمنا فى صدد البحث الحر . الى ان نمر بمسجد ولى من أولياء الله الصالحين فاذا به يدهش لصمتى فجاة ويلتفت فيرانى قطعت الحديث لاهمس بقراءة الفاتحة ! .. فيقول لى مطمئنا : « يعنى انت مؤمن بقى بجد ؟ ! » فأؤكد له انه لا داعى الى القلق على ايمانى .. فهو طبيعى .. كما انه لا داعى الى الخوف من تفكيرى الحر . فهو ضرورى . وانى اكون كاذبا لو تظاهرت بالايمان ، كما أكون كاذبا لو الجمت التفكير . وانه يجب أن يوافقنى على ان كل شىء يجب ان يقوم على الصدق .. وترن كلمة الصدق هذه فى راسه ، فيترك التزمت قليلا ويبتسم ويروح يقص على بعض ما جرى له بمناسبة الدين . قال انه اراد ان يؤدى الزكاة .. فلم يدر كيف يفعل . فقيل له اذهب الى وزارة الشئون الاجتماعية ، ففيها قسم مخصص لذلك . فذهب . فعرضوا عليه اسم شخص يستحق الزكاة ، واعطوه عنوانه . فمضى اليه عصر احد الايام فوجد منزلا فى حارة . فدق على الباب فلم يجب أحد . واستمر فى الدق ، ففتح الباب وظهر شخص قوى البنيان مفتول العضلات ، فى جلباب سكروتة نظيف يهفهف ، وأبريق فخار كبير يجرع منه بيد ويفرك عينيه بيد ، ويقول بعجرفة : تصحينا كده من عز النوم ؟ ! .. عاوز ايه حضرتك ؟ .. جاى ليه ؟ ! .. » ، ولم يعجب الدكتور سعيد منظر هذا الرجل الذى لا يدل على مرض ولا ضعف ولا عوز ، وزاد على ذلك قلة الادب ، فقال له : « جاى أحسن عليك ! .. لكن بقى مافيش لزوم ! .. » ، وتركه منصرفا متعجبا كيف وضع اسم شخص كهذا فى قائمة المستحقين للزكاة فى وزارة

الشئون الاجتماعية ؟! .. واصر بعد ذلك على أن يبحث هو بنفسه عن المستحقين حقا .. وكان يجد متعة فى ذلك ، بل كان يجعلها احيانا نوعا من التسلية — وخاصة فى شهر رمضان المبارك — اعتاد أن يحيى لياليه فى منزله على الطريقة القديمة .. يأتى بمقرئين لتلاوة القرآن .. وكانا شيخين كفيفين . فاذا دق مدفع الافطار قدمت اليهما صينية الطعام . وكان الدكتور سعيد حريصا على أن يحضر اكلهما ، ويبصرهما بالاصناف .. قال لهما ذات مساء : اسمعا ما اقول لكما جيدا : فى طبق الخضر ثلاث قطع من اللحم ، واحدة كبيرة ، واثنتان صغيرتان . من يأخذ الكبيرة عليه أن يترك الصغيرتين لزميله . وهذا هو العدل . وجعل ينظر الى ما هما فاعلان ، فرأى الايدى وقد امتدت الى الطبق فى سرعة خاطفة ، وهى تتسابق الى قطع اللحم فتتصادم وتتشابك . وهما يتصايحان : « حاسب يدك يا شيخ محمد ! .. حاسب انت يا شيخ احمد .. ! » ، ويضطر الدكتور سعيد الى التدخل ليخلص الايدى بعضها من بعض ، وهو مستمتع بهذه الفرجة . كما كان يستمتع بمنظر فرحهما وهو يعلن اليهما : « النهاردة كنافة » . وفى اليوم التالى « الليلة خشاف » أو الليلة « قطايف » ... كانا يصيحان طربا عند سماعهما ذكر هذه الحلويات : الله اكبر ! . ويهزان الرقبة يمينا وشمالا ... وفى ذات يوم قال لهما انه يحسن تحريش المعدة بصنف خشن . واعلن اليهما أن الطعام عبارة عن عدس . فاذا بهما يزومان ويقطبان الجبين ويطرقان اسى ... ثم تجرأ احدهما وهمس قائلا : « عدس ! » ورد الاخر همسا : « ما احنا شبعانين منه ..! » ، ولكن سعيد ما كان يقصد غير الممازحة ليرى وقع ذلك عليهما . فلما

عاد يصحح كلامه ويخبرهما انه لا عدس فى رمضان . وان الاصناف القادمة كلها مما تشتهى الشفة واللسان .. منها الارز المفلفل باللحم المفروم ، والمكرونة بالمصاج غير المشويات والمحشوات والاملظية وقمر الدين ، علا الهتاف وصاحا فى صوت واحد : « ينصر دينك يا دكتور ... ! » .

من ملامح شخصيتنا المصرية التسامح . كل الاديان والمذاهب تعيش فى مصر آمنة جنبا الى جنب . لم تعرف مصر فى تاريخها الطويل تلك المجازر الطائفية التى تسيل فيها الدماء انهارا على غرار ما حدث فى البلاد الاخرى . معدة مصر القوية تهضم كل شىء ، ولا يبقى فى النهاية غير مصر . لذلك لا نستغرب اذا رأينا كثيرا من النذور يقدمها المسلمون الى جانب المسيحيين لسانت تيريز ومار جرجس ... وعندما كنا اخيرا فى جبال الالب سألنى مرافقى وهو شديد الاحساس بدينه واسلامه مما اذا كان فى البلدة كنيسة ، فلما دلونا عليها ، صار يذهب بى كل صباح اليها ويوقد شمعة يضعها تحت اقدام مريم العذراء . كان تمثالها الذهبى الكبير وهى تحمل رضيعها والنور الالهى يحيط به يملأ النفس خشوعا وجلالا ، فكان يتركنى وينتحى ناحية يقف طويلا ووجهه الى السماء يبتهل الى الله صاحب كل الاديان .. ولكن هذا التسامح الذى جاء نتيجة العراقة وحكمة العمر الطويل عبر القرون ، ينزلق احيانا عندنا الى التساهل والتساهل هو الوجه الممسوخ للتسامح . هو التغاضى عما يجب أن يؤخذ بحزم فى شئون العمل والحياة . ولذلك عرف عن مصر أيضا انها بلد « ماعليهش » . يخطىء المخطىء ويهمل المهمل فاذا سألته قال باستخفاف : ما عليهش ! ..

بل ان الرئيس المسئول يرى خطأ مرؤوسه أو اهماله في عمل من الاعمال أو واجب من الواجبات ، فاذا نبهته الى ما ارتكبه المرؤوس قال في شيء من التراخي : « يا سيدي ما عليهش !.. » . وهذا داء خطير عندنا في مجال الانتاج والتقدم . اذا استطعنا أن نفصل التساهل عن التسامح ، كما يفصل العشب الضار من الشجرة المباركة ، فاننا نكون قد احتفظنا بالنقاء والصفاء لملمح جميل من ملامح شخصيتنا . ولكن المسألة ليست بهذه السهولة . فالعشب هو ايضا لاصق بالشجرة منذ امد طويل ، وما هو المنجل الذي يفصل بينهما ؟ .. لقد اردت في رحلتي الاخيرة أن احجز مكانا في طائرة العودة . واقتضى الامر الحصول على بعض البيانات من مصر . بيانات خاصة بالثمن المدفوع لتذكرة القيام حتى يحسب على اساسها ثمن تذكرة العودة ذهبت الى شركة الطيران الاجنبية في باريس التي أحجز على طائرتها واخبرتها بنية سفري في اليوم التالي، فقالت انها ستبرق الى مصر بطلب البيانات ، وسيأتي الرد طبعا في ساعات ، وبهذا يصبح السفر ممكنا في الموعد الذي أردته ، وحررت البرقية امامي وقرأت نصها ، ولكني قلت للشركة بلهجة الجزم والتأكد : « ما دامت الحكاية فيها انتظار رد من مصر فانا غير مسافر لا غدا ولا بعد غد ولا بعد اسبوع !.. فاستغربوا قولي ولم يصدقوني . وعدت اليهم بعد يوم اسأل عن رد مصر . فلم يجدوا ردا وصل . وقالوا ربما بعد يوم آخر . قلت لنفسي ستنتظرون عبثا هذا الرد . انه لن يأتي . برقيتكم مدشوتة في درج مهمل لموظف أو موظفة من طراز « ماعليهش » ! .. وبالفعل مضت أيام ولم يصل رد ، وتأخر سفري ، الى ان

اقترحت عليهم صرف النظر عن البيانات ، واعتباري زبونا جديدا مستعدا لدفع أي ثمن لتذكرة جديدة . . هذا التساهل هنا أو الاهمال هو في أتفه مظاهره وأقلها خطر . ولكن عندما يقع في انتاج نصدره الى الخارج ، في خيط واحد ناقص من نسيج ، فان سمعة صناعتنا كلها تصبح في الميزان . وعندما يحدث في تقصير في الخدمة صغير بالنسبة الى سائح ، فان كل سياحتنا تصبح مضغة في الافواه . وخسارتنا هنا تصبح مادية ومعنوية الى أبعد حد . اننا نكسب بالتسامح ونخسر بالتساهل ومع الملمح الجميل الدمل الدميم . ولكن المطمئن في الامر هو ان الملامح طبيعية وثابتة ، والدمامل طارئة ويمكن أن تزال . .

كان في ظننا الى عهد بعيد ان من ملامحنا الخاصة بنا ما يسمى بالغيبيات . ولكن أوروبا منذ مطلع القرن بدأت تظهر فيها نزعات غيبية على نحو جماهيري . فكثرت الاعلانات في الصحف والمجلات عن المنجمين والمنجمات . وكنت في العشرينات أقرأ مثل هذه الاعلانات . بغير اهتمام أول الامر . الى ان حدث ما جعلني اهتم بها . لا بسبب عاطفي أو مرضي أو مستقبلي . بل بسبب مضحك : سبب فني . فقد كانت تعرض لي في مصر بفرقة عكاشة في ذلك الوقت من عام ١٩٢٦ أوبرت « على بابا » وجاء في خطاب من مصر يصف لي روعة المناظر التي عرضت بها على نحو أثار حنيني وشوقي . كنت أدفع نصف عمري يومئذ لمن يحملني الى مصر أشاهدها وأعود . ولكن لا طائرات وقتئذ ، والبواخر بطيئة ، وأهم من ذلك المال . أين المال للسفر ؟ ! . فكنت أنام وأقوم وأنا أحلم

بالمسرح والمسرحية ، كنت فى تلك الايام ككل مؤلف شاب لا اكاد افارق المسرح اثناء تجارب مسرحيتى ولا طول مدة عرضها . الازم المسرح والمسرحية وانا فى الكواليس او الصالة او اعلى التياترو ، باستمرار حتى اعتاد بصري الظلام ، واستغرب وجود الشمس عندما اخرج ساعة فى النهار . اليوم اسمع مثل هذا من مؤلفينا واتعجب وانسى انى كنت قديما مثلهم واشد حبا وغراما وحرصا على الالتصاق ليل نهار بالمسرح والمسرحية ، بعد أن اقعدنى اليوم الزهد والسن والضيق عن الرغبة فى مشاهدة مسرحياتى حتى على مسارح اوروبا ، متحسرا على الحماسة الفنية والنفس المفتوحة التى كانت لى فى الماضى .. ماذا اصنع اذن لارى « على بابا » بمناظرها على المسرح . وانا فى باريس ؟ ! قرأت فى إعلان لاحدى المنجمات انها تستطيع أن تجعل الشخص يرى ما يريد رؤيته ماثلا امامه من خلال كرة بلورية . فأخذت عنوانها ومضيت اليها على الفور . فوجدت امرأة عجوزا فى شارع ضيق متفرع من بولفار باتنيول ، تجلس على مائدة مفروشة بجوخة خضراء فوقها كرة بلورية فى حجم البرتقالة اليفاوى . او اكبر قليلا . امسكت بكفى اولا ، وجعلت تقرأ لى خطوطه وتحدثنى بكلام طويل عن حب عاطفى مستعر يبتدىء بكذا وسينتهى بكذا . وانا لا اصغى اليها ... كل همى والتفاتى الى الكرة البلورية اريد أن اشاهد فيها مسرحيتى « على بابا » يتحرك فيها الممثلون عمر وصفى وزكى عكاشة وعليه فوزى وبقية افراد الجوق ، وتصدح فيها الحسان زكريا احمد ، وتزهو بتلك المناظر الباهرة التى بلغنى خبرها ! .. بالطبع لم ار شيئا . ولا حتى مطربنا زكى عكاشة فى حجم « عقلة الصباع » ! .

تركت المنجمة يائسا . ومرت الايام والليالى ، وعينى تقع على هـذه الاعـلانات فى الصـحف عن المنجمين والمنجمات ، فأخذت افكر فى هذه الظاهرة . كيف أصبح التنجيم بضاعة رائجة فى باريس ؟ وظهر فى تلك الاثناء لاستاذ جامعى محترم اسمه فيما اذكر شارل ريشيه كتاب عما اسماه الحاسة السادسة يعرض فيه تفسيرات لخوارق ما كان يتعرض لها العلم من قبل . أتراها الحرب العالمية الاولى وما جرت من كوارث وهزت من نفوس أثرت فى عقول الناس ، وجعلتهم يلتمسون العزاء او الهرب فى عوالم خفية ، أو انه تحول فى مجرى الحضارة الاوروبية ذاتها ، وحاجتها الى مسالك جديدة الى المعرفة ؟ .. ربما كان السببان صحيحين . واحدهما لا ينفى الاخـر . وان كان ذلك التحول الحضارى قد بدأ قبل الحرب العالمية الاولى بزمن ليس بالقصير . وفى رأيى أن حملة نابليون الى مصر واكتشاف حجر رشيد على يد شامبليون غير مفهوم اوروبا بالامس حضارتها . فقبل هذه الحملة واكتشاف العلماء لمصر كان الاساس الحضارى لاوروبا والغرب كله هو اليونان القديمة بمنطقها الظاهر وفنها العارى وفكرها الواضح. فلما عرفوا مصر ادركوا أن هناك دنيا اخرى لها منطقها الخفي وفنها الغامض وفكرها الغائر فى المجهول . ولكن تأثير مصر اخذ وقتا طويلا ليشق له تيارا فى اوروبا الى جانب التيار اليونانى . ومهـدت مصر لهم الطريق لاكتشاف أفريقيا كلها . وخاصة أفريقيا الفن والكهانة والسحر . وما ان جاء هذا القرن حتى كانت أوروبا قد فطنت وذهلت للقوة الخفية الكامنة فى فننا المصرى القديم ، وللمؤثرات الساحرة لفن الاقنعة الافريقى ، بل وللقوى الملاجية العجيبة لايقاعات الطبول والرقص

عند قبائل افريقيا ... وجعلوا يدرسون كل ذلك بعناية. وظهر تأثير الخطوط المبسطة الصارمة والكتل الحجرية المهيبة فى فن مصر على فن اوروبا التشكيلى ، كما ظهر تأثير ايقاعات الطبــول الافريقية على الموســيقى ، والكهانة وسحرها على علوم النفس والتنجيم .. ومن يتابع نشاط بيكاسو وبول كلية وكاندنسكى قبل عام ١٩١٠ يجد هذه الاتجاهات والتأثيرات . ومنهم من قال صراحة انه ذهب الى افريقيا ليكتشف طريقا جديدا لفنــه . وظهرت المدارس التى تدعو الى الاهتمــام بمعجزات الفطرة الخلاقة عند الاطفال والشـعوب البدائية ، وتأثرت بالفعل بعض الاساليب الفنية الحديثة فى أوروبا بهذا الاتجاه . كما جاءت المدارس السوريالية والدادية وغيرها بفكرة تخطى حاجز العقل المنطقى والوعى الظاهر ، للنفوذ مباشرة الى منطقة الوعى الخفى .. كل ذلك كان يدل فى عشرينيات هذا القرن على أن أوروبا فى سبيل تحول حضــارى يدخل فى حسابه دراسة الغيبيات الى جانب العقليات . ولكن كل هذا كان يمارس على الطريقة الاوروبية ... بمعنى أن الغيبيات كانت تدرس بواسطة العقليات ... وهنا الفرق بيننا وبينهم . أن الغيبيات عندنا جزء منا ، لايخطر ببالنا ان نقطعه وننفصله وندرسه . ولكنها بالنسبة اليهم شىء منفصل ، يريدون ضمه واضافته بالدراسة والعلم والفن ...

يبدو اننا علمنا الدنيا البناء للخلود . ونسينا اليــوم أن نعلمه لانفسنا . هذه الاهرام الباقية على مـدى الزمان . وهذه المساجد باحجارها الضخمة منذ قرون ... شيدتها أيدينا المصرية لتتحدى الغد . وقد تحدته

بالفعل . العـالم المتحضر اليوم يفعـل ذلك . بهـذه الرافعات العملاقة التى رايتها فى اوروبا يقوم البنـاء العملاق المتحدى . انهم يبنون كأنهم يعيشون ابدا ، على الرغم من شبح الحروب وقلق الدمار ، ونحن نبنى كأننا سنموت غدا . ابنية هزيلة هشة توحى بالزوال . اترانا قد شبعنا خلودا ؟ ! .. او ان من خصائصنا المصرية الشعور بالبقاء .. تجده اما فى كتلة الاحجار واما فى كتلة الشعب المصرى ! .. فمصر تشعر دائما بقوة صمودها للزمن بكتلة احجارها او بكتلة شعبها . والاحجار عندما تبلى تجد من يرمها ، والشعب ايضا فى حاجة الى ذلك . ولكن شعب مصر فى صبره الطويل على الزمن والمحن ينسى نفسه ، وينسى فكرة الترميم . لا لحياته فقط ، ولكن لمبانيه ايضا . يتركها كما هى وهو يعلم انها آيلة للسقوط . قلما تعرف اوروبا المنزل الايل للسقوط ، وتتركه حتى يسقط . الصيانة هى روح البقاء عندهم . ونحن لا نعرف كلمة الصيانة . لا لصحة الجسم ولا لصحة المبنى . ان الانفاق الجديدة المحفورة اليوم فى باريس ، للمترو او السيارات لشىء يدعو الى الدهشة . ومن طولها اصبحت شوارعها تحتية . وقد اتعبنى السير فيها . وخاصة وساقىمريضة . والنسيان قد زاد عندى فلم احفظ اللافتات الموجهة ، فاسير واجهد فى السير ثم اكتشف خطأ طريقى فأعود ادراجى لاسلك نفقا آخر اكثر منها طولا . سألت نفسى : لماذا كل هذه الطرق تحت الارض ؟ . . لا شك انهم يخططون للمستقبل ويدركون ان الشوارع العادية فوق الارض لن تكون ورقة ملقاة صادفتها فى طريقى ... قد نفطن غدا الى ضرورة هذه الانفاق ، ولكن الى اى مدى ستبقى كأنفاق، ولا تنقلب الى مباول واكوام قاذورات ؟ من السهل ان

نستعيد القدرة على البناء ، لكن هل من السهل ان نغرس روح الصيانة ؟ ! . وهل الشعب الذى لا يعرف الصيانة لبدنه يستطيع ان يعرف الصيانة لمبانيه .. ؟! كم من الشعب من يذهب الى الطبيب ، قبل أن يخر صريع المرض ؟ ! .. ان مشكلة الصيانة لهذه الاتفاق يوم تنشأ أخطر واعسر من مشكلة البناء ! ..

هناك نوع من الصيانة نعرفه .. وربما اعتبر فى خصائصنا المصرية . ذلك هو صيانة عاداتنا من التغيير السريع ، نجد ذلك فى بعض المطاعم القديمة الشهيرة كما نجده فى عيادات بعض الاطباء القدماء المشهورين كنت فى الشتاء اذهب مع جماعة من الاصدقاء يوم الجمعة من كل اسبوع لنتناول طعام الغداء فى مطعم شعبى للشواء اى الحاتى فى حى من أحياء القاهرة الشعبية بعض هذه المطاعم معروف من عشرات السنين ، ومزدحم دائما بالزبائن من شتى البلاد ، واحيانا من السائحين الاجانب وهو قلما يغير من مظهره . كأن الدنيا واقفة منذ أول انشائه . لا يخطر بباله ان يغير مرة من لون مناشفه او مفارشه ، أو حيطانه . وجدت ذات يوم هذا المظهر فى عيادة طبيب كبير . المقاعد والاثاثات والابسطة العتيقة الممزقة يغطيها التراب . كل شيء عتيق ومترب مهمل وكأن العنكبوت ينسج خيوط التاريخ القديم على المكان ، فيوحى اليك انك فى عيادة الطبيب الخاص لآدم عليه السلام ! .. سألته مرة فى ذلك فقال انه يستبشر بهذا ويتفاءل . لان العيادة على هذا النحو من قديم جاءت له بالنجاح . وانه يتشاءم من أى تغيير .. ولست أدرى ما هى الصلة بين النجاح الاول وبين الوقوف عنده بلا تغير . اقارن هذا بما حدث لنا أخيرا فى باريس .

راينا فى احد المتاجر الشهيرة قطعة قماش معروضة فى مكان من المحل اعجبت مرافقى واراد شراءها ، ولكنه تردد لارتفاع سعرها واحجم وانصرفنا . ولشدة تعلقه بها شجعته على شرائها ، وذهبنا فى اليوم التالى لنبحث عنها فى موضعها حيث تركناها ، فوجدنا المواضع كلهـا قد تغيرت ، والمعروضات قد اتخذت شكلا جديدا . وعبثا حاولنا العثور عليها . هكذا بين يوم وليلة تتغير اوضاع المحل ؟ ! نعم . قالت لنا البائعة : لابد ان تقع عين الزبون على شكل جديد فى كل يوم . وصرت اسائل نفسى : هل الاشكال الجديدة هنا نتيجة للحركة السريعة فى الفكر والخيال ؟ . او ان سرعة الايقاع للفكر والخيال فى هذه الامم هى التى تستوجب التغيير المستمر فى الاشكال ؟ . شىء آخر لفت انظارنا : هذه الاشكال نفسها ما هى الا وليدة خيال وذوق وفهم ... ذهبنا لتناول طعام الغداء فى مطعم متخصص فى اللحم البقرى المسلوق بالخضر مع الملح الكبير المجروش ، او ما نسميه عندنا فيما اظن بالملح الرشيدى . دخلنا فوجدنا المحل عجيبا بالديكور الذى اتخذه . فسقفه عبارة عن جلد البقر ، وعلى الحيطان رسم بارز رائع لبقرة كبيرة ، وثريات الكهرباء من قرون البقر ... وكنا قبل ذلك قد دخلنا مطعما اسمه « عربة البريد » . تلك العربة الكبيرة التى كان يسافر بها الناس قبل اختراع السكك الحديدية . فوجدنا ديكور المحل يتكون كله من هـذه العربة ، وكأننا جميعا داخلها يظلنا « كبوت » العربة الضـخم ، ويضىء لنا النـور من فوانيس كبيرة هى فوانيسها ، وتتدلى الشموع من عجلاتها ... وحتى سوط السائق والجمة الخيل وما يوضع على ظهورها وعيونها .. كل ذلك يتكون منه الديكور ، على نحو

بديع يثير الخيال . وهكذا فى كل مطعم أو مكان نجد الخيال الخصب الذوق البديع والاشكال الموحية قد سبقتنا اليه . ولم يعد الامر مجرد طعام يؤكل ولا بضاعة تقدم ولا مصلحة تقضى ، بل أيضا متعة الجو الذى ينسج حولك بذوق وفهم وذكاء . . . وهذه أيضا ادوات السياحة لكل بلد يريد أن يستقدم زوارا وسائحين .
ولكن هذه الاشياء اين نجدها ؟ ومن يعلمنا اياها ؟ . . الحقيقة ان مصر كانت تملكها وتعرفها على مدى تاريخها فى فترات يقظتها وحضارتها . . . وهى التى اشعرت العالم بفن معابدها ونقوش مساجدها وما لا يحصى من تماثيلها واوانيها وتحفها . وكان المصرى هو الفنان الذى يخلقها ويبدعها وهو الشعب الذى يشاهدها ويتذوقها . . . اين ذهب اذن هذا المصرى ؟ ! .
خنقه الاحتلال الاجنبى الطويل وانساه الخلق والابتكار .
واعطاه تعليما يجعل منه فقط العامل اليدوى والموظف المكتبى . وكل تعليم يكتفى بصب المعلومات لن يؤدى الى خلق وابتكار . وأهم دعامتين لكل خلق وابتكار هما الذوق والخيال . انى احفظ كلمة للعالم اينشتين اعجبتنى وأدهشتنى . قال ما نصه : « ان الخيال أهم من المعرفة » . . . حقا انها كلمة عجيبة ، وخاصة من رجل علم مثل اينشتين ! . . ترى ماذا يقصد ؟! وجعلت أفكر فيها مليا . اتراه يقصد أن الخيال آلة متحركة ، والمعرفة رصيد ثابت ؟ . . الخيال حركة والمعرفة سكون ؟ ! . أو انه يقصد أن الخيال هو الدينامو المحرك لاجتذاب المعرفة ؟ ! . أغلب ظنى ان هذا ما يقصد .
فقد قرأت له فى مجال آخر قوله ان الكثير من اكتشافاته العلمية يرجع الى الخيال والتخيل فى مبدأ الامر . . .
اذن حتى فى نطاق العلم البحت لابد من الخيال . لكن

كيف نرى الخيال ؟ ! . الجواب نجـده عند اينشتين نفسه . فقد كان من أهم هواة الموسيقى ، يعزف بيده على بعض آلاتها ، ويتذوقها أحسن التذوق . وله آراؤه الخاصة فى باخ وموزار .. ولا انسى ايضا فى هذا المقام عالمنا المصرى العالمى الذى قيل انه احد عشرة فى العالم وقتذاك تعمقوا وتابعوا بالبحوث معادلات اينشتين :
انه المرحوم الدكتور مشرفة . لقد كان من هذا الطراز كما تكشف لى من رسائله الى احاديثه معى فى الادب والفن ... اذن علينا أن نستنتج من ذلك قيمة الفنون والاداب فى تنمية هذا الخيال اللازم فى كل خلق وابتكار ، حتى فى ميدان العلم النظرى والتطبيقى ، بل وعلى الاخص كما قال لنا اينشتين فى مجال العلم وبحوثه واكتشافاته ... وهذا يفسر لنا معنى اكتمال الحضارة فى كل امة وعصر ... أن روح الخلق نجده فيها ساريا نابضا فى كل فروع الشجرة الحضارية المثمرة : فى العلوم والفنون والاداب والتذوق العام . كما أن الروح الخامدة نجدها فى الامم المتخلفـة أخملت كل فروع شجرتها الذابلة ، فادى عقم الخيال الى ضمور التفكير فساد الذوق العام ، وعندما يفسد الذوق العام ، كما يفسد الدم فى الجسم ، وتظهر الاعراض فى صـورة هبوط فى مستوى الوعى وشحوب فى وجه الفكر ، نتيجة الطعام المبتذل والغذاء الناقص فى قيمته المرتفعة الذى يقدم الى الشعب ، فان العلاج هو فى عملية تغيير الدم ، بأن ينقل اليه دم يحوى من قيم التغذية الحضارية أدسمها وأعلاها مما يعيد الى الجسم حيويته وكفاءته ويسترد صحته وقوته ويتوهج من جديد خياله وروح ابتكاره ويلحق بالحضارة المستيقظة حوله ، فتراه بعد نومه خلفها ، قد هب جالسا الى جوارها ، يتعاون

معها فى السير بالانسانية نحو التقدم ...

قضينا ليلتنا الاخيرة بباريس فى فندق ، رضى باقامتنا فيه ليلة واحدة كالعادة فى هذا الموسم الغريب ! ... ووجدت موضوعا على مائدة الحجرة كتابا جيد التجليد هو الكتاب المقدس ، وعندما هممنا بالرحيل فى الصباح اردت حمل هذا الكتاب معى ٪ فقال لى مرافقى انها سرقة . فقلت انهم يريدون منا ان نسرقه . وكنا قبل ذلك قد وجدنا فى أحد الفنادق كتابا به كل ما يمكن زيارته فى باريس من متاحف ومعارض ومسارح ومراقص ومطاعم ومتاجر . وقلت انه ما دامت قد تركت مثل هذه الكتب للنزلاء فقد وضع فى الحساب والاعتبار ان ياخذوها . وفى أخذها ونشرها بين ذويهم فى مختلف البلاد فوائد معنوية لا تقاس الى جانبها الخسارة المادية . ان حبس المعرفة والثقافة لبلد من البلاد عن الانتشار وغزو العقول فى البلاد الاخرى وتكبيلها باستمارات — س ح و ط ز — لهى نظرة ضيقة لا ترى غير الجانب المادى لاشياء هى فى جوهرها واثرها البعيد فوق مستوى المادة .. على كل حال لم أحمل شيئا من هذه الكتب المتروكة ما دامت هناك شبه سرقة . وحزمنا حقائبنا وقمنا الى المطار . وقامت بنا الطائرة الى جنيف . وقالوا فى المذياع اننا سننتظر فى جنيف قليلا الى ان تقوم الطائرة الى القاهرة فى الساعة الثانية وفهمت أنا خطأ ان الانتظار فى جنيف هو لمدة ساعتين واذا بى أتلكأ وانفق الوقت فيما لا طائل تحته ، واذا بى اسأل عن طريق المصادفة البحتة موظفة الاستعلامات عن موعد قيام طائرة القاهرة بالضبط . فدهشت وقالت : ما الذى أخرك للان . انها قائمة فى التو واللحظة . اسرع ... اسرع قد تلحقها وقد لا تلحقها . فكدنا

نصعق وانطلقنا نجرى كالمجانين ، ومرافقى المسكين يحمل عنى ما أنوء به من حقائب صغيرة وأنا أعرج بساقى . وما أن وصلنا الى آخر باب حتى وجدنا المسافرين كلهم قد خرجوا . واننا نحن آخر الفوج ظهرنا تلهث . واذا بنا نجد انفسنا فى ايدى موظفين على وجوههم الريبة ، فتناولونى بالتفتيش الدقيق خلف ستار ، يتفحصون جسمى وانا أقول لهم : « هل تتوقعون ان تجدوا معى قنابل ومسدسات وقدرة فى مثل سنى على خطف الطائرات ؟ ! » وحدث لمرافقى ما حدث لى من فحص لكل ما يحمل حتى علب فرش الاسنان ! . . وتركونا آخر الامر نصعد الى طائرة القاهرة ، بعد ان تصبب منا العرق مدرارا . . . ولست ادرى ما الذى جعلنى اتذكر نجاة حادثا لى مع بعض السلطات منذ ما يقرب من ربع قرن . . . كنت أريد السفر الى فرنسا . وجهزت كل اوراقى . ولم تبق سوى تأشيرة القنصلية الفرنسية . واذا بالقنصل يرفض اعطائى هذه التأشيرة ، التى لابد منها لدخول فرنسا . ولم أدر ما السبب ؟ وقيل لى اذهب اليه لتتحرى الامر . فذهبت وقابلته وسألته . فأخرج ملفا من درجه وجعل يعدد التهم . قائلا : انت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه ان أملك خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استقلال شعب صغير . . . الخ فتذكرت المناسبة كان ذلك على اثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على استقلال لبنان ، واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزراءه ونوابه ! . . قلت له : الا يستحق مثل هذا الاعتداء على كرامة شعب شقيق أن اكتب فيه مثل هذا المقال ؟ ! . . فلم يلتفت الى قولى واستمر ينظر فى الملف ويقول : ثم

حدث بعد ذلك انك أهنت فرنسا برد نيشان اليها ، كانت قد أهدته اليك بمناسبة ترجمة مؤلفاتك الى الفرنسية عام ١٩٣٨ ... وهنا تذكرت أيضا المناسبة . كانت على أثر اعتداء فرنسا على تونس . وكانت مذابح وضحايا ، وتكونت فى مصر لجنة من الهلال الاحمر رأت الذهاب الى تونس بالادوية اللازمة للجرحى . واذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء ...

قلت للقنصل : الا تريد منى أن أغضب لمثل هذه الاعتداءات على شعوب هى لنا بمثابة الشقيقات ؟ .. ضع نفسك فى مكانى .. الم تغضبوا يوم اعتدى الالمان على استقلال بلجيكا ؟ ! فأطرق قليلا . وبدا عليه حسن الفهم . ولكنى أنا عجبت لنفسى . ما الذى كان يغضبنى هذا الغضب !! . انا لم اكن يوما من حملة الشعارات ، لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية ... انى أتصرف دائما من وحى شعورى التلقائى ونظرتى الخاصة . اذن غضباتى صادقة . لانها نابعة منى وحدى . ونظراتى أيضا لانها صادرة من تقديرى وحدى . وما دمت دائما صادقا مع نفسى وهى المنبع عندى فالامر اذن حقيقى . واذا كنت اغضب تلقائيا لما يمس اى شعب عربى ، فمعنى هذا انه لابد ان يكون هناك شىء مشترك . عندما اقول أن اسمى هو توفيق الحكيم فان كلمة الحكيم هى الاسم المشترك الذى يقاسمنى فيه أبى وابنى وشقيقى . ولكن اسم توفيق هو شخصيتى أنا .. وجودى .. تجاربى .. تاريخى .. قدراتى ...

عيوبى ... ظروف ... لن اتخلى عن اسم توفيق الذى هو نفسى ... ولا انسى اسم الحكيم الذى هو اسـم الاسرة التى انتمى اليها ... اللقب هو الانتماء ، والاسم هو الشخصية ...

وعندى ان الوحدة كالوردة نحبها ونشمها ولا نفركها بايدينـا .

العـــــوالم

الى ...
الأسطى حميـــدة الاسكندرانية
اول من علمنى كلمة « الفن »

عوالم الفـــــرح

« كتبت هذه القصة الوصفية
فى باريس — بشارع «بليور»
عام ١٩٢٧ بعنوان «العوالم»،
وهى وصف لطائفـــة عـــوالم
الافراح التى كانت معـــروفة
فى مصر قديما ، وانقــرضت
الآن » .

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق نزل الحاج محمد المطيب(*) من عربة الدرجة الثالثة. ووقف على الرصيف بجوار النافذة .. يجفف عـرقه ويسعل سعال أصحاب الكيف الذين يعيشون بأنفاس التعميرة .. ثم صاح :

ـــ يا .. الله .. رمضان كريم ..

وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة .. والقى نظرة اطمئنان سريعة على الاسطى حميدة وجميع افـراد التخت .. وقد انحشرن فى مقعدين متقابلين بطـرف العربة .. تتوسطهن صرر الآلات .. ثم قال :

ـــ ادينى بلا قافية رستاتكم فى ركن معتبر. خليكم بقا كده باذن الله لحد محطة سيدى جابر ..

فرفعت الاسطى حميده يديها الى السماء بقوة ..

ـــ شيلله يا سيدى جابر .. الفاتحة ياولاد لسيدى جابـر ..

فصاح الحاج محمد بسرعة :

ـــ بس حاسبى .. بلا قافية ايدك حاتوقع الرق من فوق الصرة على العود تنقطم رقبته ..

ـــ شر بره وبعد .. شيلله يا سيدى جابر .. الهى يجبر بخاطرنا .. بسره الباتع .. الا يا حاج محمد .. دى المستعجلة دى ولا المتخر .. ؟

ـــ المستعجلة .. هو من غير مؤاخذة المتخـر يبقى فيه « ترسو » ؟ .

ـــ هلبت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور ..

ــ على ابو التسمين .. جاتلاقوا حد من طــرف بيت الفرح مستنتظركم على المحطة .

وعندئذ رنت ضحكة ســخرية من سلم الرقاقــة العاجزة اردفتها بقولها :

ــ وان ما كانش حد فى انتظارنا يا ادلعدى .. دى ساعة قطار وكل من كان همه فى بطنه ..

فالتفتت اليها الاسطى حميده وقالت :

ــ النبى تسدى .. وتحطى على ميلتك برش .. الملوان معايه ..

فابتسم الحاج محمد وقال :

ــ براوه عليك يا اسطى حميده .. اهو بلا قافية ان ما كانش حد فى استنظاركم اديك معاك الملوان .

وكان الاسطى حميــده بجلالة قــدرها لم تفكر فى العنوان الا فى هذه اللحظة .. ذلك لأنها اخذت فجأة تبحث عنه فى ملابسها وفى صدرها .. ثم التفتت الى فاطمة الرقاصة وقالت بقلق :

ــ بت يا فاطنة .. الورقة الى اديتها لك فين . واحنا فى الحنطور .. ؟

فأجابتها :

ــ ما هى ملفوف فيها الصاجات ..

فدققت الاسطى حميده على صدرها صارخة :

ــ صاجات يا بت .. ؟ الورقة اللى فيها العلوان الهى يسخطك ..

فتجهم وجه الحاج محمد قليلا وقال :

ــ بقا بلا قافية مش عارفين تستحرصوا على حتة ورقة .. ؟

وهنا دق جرس المحطة الاول فصاح جميع افــراد التخت فى وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب .

ـــ نشوفه وشك فى خير يا حاج محمد ..
ولكن الحاج محمد أشار اليهم بالسكون .
ـــ هس .. لسه .. هس سمع .. لسه فاضل كمان من غير مؤاخذة جرس .
ثم سعل وبصق وصاح :
ـــ يا .. الله .. رمضان كريم ..
فقالت الاسطى حميده وهى تبتسم بخبث :
ـــ بحق يا حاج محمد .. دا أنت صايم .. الهى يصبرك ..
فلم يجب الحاج محمد .. ولم يتنبه الى ابتسامات الخبث والسخرية التى تبودلت بين جميع أفـــراد الجوق . واستمر يتمتم بذكر الله والصيام .. ثم رفع رأسه وقال :
ـــ بقا فهمتم بلا قافية تعملوا ايه فى محطة سيدى جابر .. ؟ تسألوا على بيت محمد بك قطبى زى اللى مكتوب فى الورقة .. محمد بك قطبى من أعيـــان اسكندرية الف من يدلكم عليه ..
وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد .
ـــ هه .. يا جماعة .. مش لازمكم حاجة .. ؟
فصرخت سلم الضريرة :
ـــ حاج محمد .. يا حاج محمد .. لازمنا قـــلة ميـــــه ..
فأجاب الحاج محمد منتهرا :
ـــ قلة ميه ايه .. احنا فى رمضان يا وليه اتقى الله .. واختشى على عرضك ..
فهزت نجية الطبالة رأسها وقالت :
ـــ حكم .. بقا اليه يا حاج محمد ولا التمميرة ؟
فصاح الحاج محمد بغضب :

ــ تمميرة ايه يا مرة .. أوحق صيامى ..

فقاطعته نجية :

ــ صـــيامك .. ؟ صيامــك أنهو ده يا روحى .. ما تقولش كده أمال .. دانا شايفاك بعينى الصبح فى ايدك الجوزة وقاعد تكح وتنبر ..

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الاسطى حميده مغيرة مجرى الحديث فضا للنزاع .. وقالت بعد أن غمزت الطبالة نجية بطرف عينها :

ــ الحاج محمد صايم زى ماانا صايمة .. فضكم يا ولاد من السيرة الغبرة دى فضكم .. قطيعـــة .. آه .. حاج محمد .. يا حاج محمد ، شوف يا ختى نسيت اقول لك . يا دى الحوســة .. الارانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد ماتنساش ترمى للارانب فوق المسطح قشر العجور .. امانه عليك .. السيدة فى ضهرك ..

وهنا دق الجرس الاخير .. وعلا الضجيج من كل جانب ..

وتحرك القطار من بين صياح افراد التخت :

ــ نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ..

وبين صياح الحاج محمد :

ــ مع السلامة ..

واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض حتى لم يعد فى مقدور الحاج محمد ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة الأرانب أو جملة نشوف وشك فى خير من بـــين هذه الاصوات المختلطة .. ومع ذلك استمر فى هذا الصياح الغريزى كل من الطرفين .. كأنما كل يصيح للصياح نفسه .. الى أن ابتعد القطار .. وعنـــدئذ هدأ كل لنفسه ..

جلس افراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق كأنما فراق مصر ولو لمهمة قصيرة المدى ادخل على نفوسهن أثرا محزنا ووحشة مؤثرة ..

لم يقطع هذا السكون القاتم غير صوت سلم الضريرة قائلة :

— يوه .. شوفى يا ختى نسينا نقول للحاج محمد يشترى لنا دخان .. بقا هو بسلامته باكه السمسون اللى معانه حايكفى طول النهار .. ؟

فلم يجب أحد .. واستمر كل فى سكونه واطراقه. واخيرا رفعت الاسطى حميده راسها قليلا وتنهدت ثم قالت بتأثر :

— يا حبيبتى يامصر ..

وكأن هذه الجملة كانت تعبر تماما عن احساس الجمع .. فاطرق الكل لحظة ..

ثم بدأ كل يرفع راسه وينظر حوله ليرفه عن نفسه فقالت سلم العاجزة :

— كلها بكره ونرجع تانى لبلدنا ..

وقالت نجية الطبالة بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالى :

— وهى اسكندرية وحشة .. ؟ والنبى اسكندرية روح ...

وقالت فاطمة الرقاصة وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالى الملاصق :

— اسكندرية مريه وترابها زعفران ..

وهكذا اخذ يسرى عن الجميع .. وتتلاشى آثار الوحشة .. فعاد الصفاء الى وجه الاسطى حميده وقالت :

— سلم .. لفى لى سجاره ..

تناولت سلم علبة الدخان وجعلت تلف سجارة بينما اخذت الاسطى حميده تلتفت حولها متصفحة وجــوه المسافرين .. ثم نظرت الى فاطمة ونجيسة وقالت بتهــــكم :

ـــ حسره وندامه على دول ركاب ..

□*□

اصابت الاسطى حميده .. فى الواقع اغلب الركاب كانوا من الصعايدة والفلاحـــين .. ومع ذلك فان الاسطى حميده بعيونها الكحيلة لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالى الملاصق .. أصحابه أربعة .. ثلاثة افندية .. ورابع يرتدى بنشا وطربوشا ..

واذا أرادت الاسطى حميده أن تعرف أكثر من‌ذلك فلتعلم أن هؤلاء الاربعة من حين أن تحرك القطـــار لم يفتروا لحظة عن النظر اليها والى هيئة التخت ما عدا سلم العمياء . واذا أرادت الاسطى حميده المصاحا فلتنسل عيون نجية وفاطمة .

لفت سلم السجارة ثم دقت على صدرها قائلة :

ـــ يوه .. يا ندامة الشوم .. مامعناش كبريت .

وفى هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ودق على‌جدار العربة بكماشته وصاح :

ـــ تذاكر قليوب ..

فصاحت سلم وهى تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

ـــ يا حضرة المفتش .. ما معاكش كبريت الهى ما تغلب لك وليه .. ؟

فأجابه المفتش ببرود :

ـــ كبريت ايه .. ؟

فقالت الاسطى حميدة متلطفة :

ــ ما تآخذناش بس تولع السجارة ..
فقال المفتش بتحفظ وبغير ان يلتفت نحوهن :
ــ انتم فاطرين رمضان والا ايه .. ؟
وكان قد وصل الى المقعد التالى الملاصق فسرعان ما تتحنح لابس البنش ورأى الفرصة سانحة للكلام فقـــال :
ــ الفطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش .
فلم يجب المفتش .. بل لزم بروده وتحفظه .. وجعل يؤدى اعمال وظيفته بجد جاف .. الى انابتعد فقالت الاسطى حميده :
ــ يا سم على ده مفتش ..
فردت فاطمة وهى تنظر الى الافندية أصحابالمقعد الملاصـــق ..
ــ يا ختى حقا ماله انط كده ومتمنطظ بعيد عنك .
فتنحنح لابس البنش وقال :
ــ ما هو اللى زى ده من غير مؤاخذة فاهمنفسه الحكومة ...
فصادقت فاطمة على كلامه .. ثم اخذ الجميسع العوالم من جهة والافندية من جهة اخرى يتحـــدثون لحظة على حساب هذا المفتش .. الى ان قال أحد الافنـــدية :
ــ جرى خير .. الحمد لله ..
وقال الثاني بلطف :
ــ الكبريت معانه يا ستات .
وزاد الثالث :
ــ ومعانا سجاير كمان ..
ثم تنحنح لابس البنش وقال :
ــ حضرتكم نازلين فين .. ولو فيها رزالة .. ؟

فردت سلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجاير ..

ـــ سيدى جابر يا ادلعدى ..

فصاح الرجال :

ـــ زينا بقا .. سكة واحدة انشاء الله . احنا نازلين اسكندرية ..

واضاف أحد الافندية :

ـــ الليلة باذن الله نصلى التراويح فى سيدى ابو العباس ..

وتحنح لابس البنش مرة أخرى ثم قال :

ـــ أظن حضرتكم مسافرين فى فرح ؟

فقالت الاسطى حميده بعظمة وتفاخر :

ـــ أيوه يا فندم .. فرح اسم الله محمد بك .. محمد بك .. ايه يابت يا فاطنه .. ؟

فردت فاطمة بسرعة :

ـــ محمد بك قطبى .

فنظرت الاسطى حميده الى الافندية وقالت :

ـــ محمد بك قطبى من اعيان اسكندرية على سن ورمح ..

ـــ انعم واكرم ..

أردف أحد الافندية :

ـــ محمد بك قطبى .. أظنه راجل كبير .. ؟

فاجابت سلم العاجزة :

ـــ العريس . لا وحياتك الا حتة جدع خفة مثلين يشفى العليل ..

فالتفتت اليها نجية قائلة :

ـــ انت يعنى شفتيه .. ؟

فردت سلم :

ـــ الحاج محمد كان بيقول العريس جدع صغار .
وفى هذه الأثناء أخرج أحد الافندية من جيبه علبـــة السجاير ودارها على أفراد التخت وقال وهو ينظر الى فاطمة الرقاصة :

ـــ أظن الست الصغيرة هى التى حاتلم النقطة ؟
فأجابت فاطمة بدلال :
ـــ أيوه يا فندى ..
وقال آخر وهو ينظر الى نجية :
ـــ والست أمال ايه .. ؟
فأجابته نجية بابتسام :
دريكه يا فندى ..
وقال الثالث لابس البنش للاسطى :
ـــ احنا من حق بدنا نتشرف بالاسم الكريم .
فأجابت الاسطى حميدة بخيلاء :
ـــ حميده المحلوية .. واسال فى حتة باب الخلق الف من يذلك ..
فقال الجميع باحترام :
ـــ انعم واكرم ..
ثم قال أحدهم وهو يشير الى العود :
ـــ حضرتك بقا الاسطى العوادة ؟
فأجابت : أيوه يا فندم .
فتنحنح لابس البنش وقال :
ـــ ما شاء الله .. ما شاء الله .. العود سلطان الطرب .. يا سلام ..
وقال آخر :
ـــ معلوم . دا بو المغنى والحظوظ ..
ثم صمت الجمع لحيظة .. قطعتها سلم بقولها :
ـــ يعنى ما حدش سالنى انا رخره أبقى ايه .. ؟

فارتبك الرجال وخجلوا قليلا وتمتموا باعتذارات واهية .. ثم أراد أحدهم التخلص من هــذا الموقف فأخرج من جيبه علبة السجاير ودارها من جديد على أفراد التخت .. غير أن سلم بعد أن مدت يـدها وتناولت سجارة قالت عابسة :

— بس كتر خيرك يا فندى .. احنــا ما نشربش غير سمسون فرط ماركة الغزالة .

وهنا كان القطار قد وصل الى محطة قليوب فأبى الافندى الا أن يشترى لسلم باكه سمسون من المحطة

□✲□

ما غادر القطار محطة قليوب حتى كانت العلاقة قد استحكمت تقريبا بين أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة التخت .. فتنحنح لابس البنش وقال :

— بقا يا اسطى حميده صلى على النبى .

فقـــالت :

— اللهم صلى وبارك عليه ..

فاستطرد لابس البنش :

— بقا احنا ولا مؤاخذة ناس صايمين . والصايم له الحق فى التسالى .. ولا انا غلطان .. ؟

وأردف أحد الافندية :

— والله تكسبوا فينا ثواب ..

وزاد آخر :

— لا .. وكمان يبقى زكا عن فطاركم .

فأجابت الاسطى حميده وهى تزجج حاجبيها بعود ثقـــاب :

— صوتى مبحوح شوية ..

فقال لابس البنش :

— صوتك المبحوح ده سلطان الطرب ..

وقال أحد الافندية :

ـــ أنا عايز أسمع فى العشق قضيت زمانى لان نعيمة المصرية .. فقاطعته الاسطى حميده صائحة باحتقـــار :

ـــ يا دهوتى .. نعيمة المصرية تعـــرف تقول فى العشق قضيت ..

فقال الإفندى بخبث :

ـــ ما أنا بقول كده برده ..

وهزت سلم رأسها ثم قالت :

ـــ يا حضرة الافندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمة المصرية ..

فأجاب الافندى :

ـــ أيوه ما هو ناوى ما اسمعهاش ..

وصادقت الاسطى حميده على قول سلم برأسهـــا ثم صاحت بحماس وخيلاء :

ـــ قولى له .. قولى له .. أنا مين .. ؟ ده أنا حميده المحلوية يا مزغرطات ..

فصاح لابس البنش باحترام :

ـــ مفهوم يا فندم . ونعم ..

وفى أثناء حماس الاسطى حميده انحدر رأس ملايتها بدون أن تشعر فظهر الصفا الذهبى البراق الـــذى يزين شعرها كما ظهر منديل الترتر فى مقدم رأسها يخطف الابصار . .وتنبه الرجال الى ذلك فأخـــذوا يختلسون النظر الى شعرها ما بين فترة وفترة .. ولاحظت ذلك منهم فاطمة الرقاصة فأسرعت بتنبيـــه الاسطى مخاطبة اياها باللغة الاصطلاحيـــة بين العوالم ..

ـــ اطســا .. يا اطسا .. أقصك نايب .. أى :

« اسطى .. يا اسطى صـــفاك بـــاين . » واسكن الاسطى لم تسمع أو لـــم ترد أن تسمع متشـــاغلة بترجيج حاجبيها بعود الثقـــاب .. ولاحظت نجيـــة الطيلة أيضا نظرات الرجال الى شـــعر الاســـطى فسرعان ما انضمت الى زميلتها فاطمة فى تنبيـــه الاسطى ..

ــ اطشـا ، افصك نايب يا ختى ..

فلم تنتبه الاسطى .. وانتبه احد الافندية الى هذه الجملة الغريبة .. فلم يفهم معناها وقال :

ــ اطشـا . اطشـا دى فين .. ؟ دى وجه قبلى؟

فقال لابس البنش :

ــ لا لا .. دول بيضربوا بالسيم ..

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الاسطى حميـــده ولنظرات الافندية لشعر الاسطى فصاحت بغيظ :

ــ يا ختى ما تسمعى أمال .. افصك نايب ..

وردت نجية كذلك بغيظ وغيرة :

ــ يا ختى الحقى افصك باين .

فانتبه أحد الافندية وقال ضاحكا :

ــ افص مين اللى باين .. ؟

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

ــ يوه .. يادهوتى .. شوف ياختى .. قال بدى اقول افصك نايب .. قلت أفصك باين ...

ثم ضحكت ضحكة رنانة .. هى التى نبهت الاسطى فالتفتت ونظرت اليها شزرا ثم قالت :

ــ هلبت انسخطتى لما ترقعى الصهلولة كـــده فى وسط الباجور .. ؟

فقالت نجية :

ــ أصلى غلطت وانا بضرب بالسيم قطيمه ..

وعادت الاسطى حميده الى حاجبيها وعود الثقاب فقال لابس البنش يتوسل :

ـــ يا اسطى حميده .. انا محسوبك .. التقل على الصايمين حرام ..

فأجابت الاسطى بتيه ودلع :

ـــ حاضر .. من عينى ..

فقال احد الافندية :

ـــ « فى العشق قضيت » ..

فأجابت الاسطى بدلال :

ـــ حاضر ..

فقال افندى آخر :

ـــ مش حاضر وبس .. لا .. احنا محاسيبك ..

فقالت الاسطى :

ـــ من عينى .. حاضر ..

فقال لابس البنش مشيرا الى العود .

ـــ العود ما هو جنبك اهو يا اسطى حميده .

فأجابت بتقل :

ـــ حاضر .. حالا ..

ثم نظرت الى نجية وقالت بصوت يسمعه الافندية:

ـــ آه .. يا ما روحي بتشفشف على فنجان قهوة ســـادة ..

فقال لابس البنش :

ـــ لك علينا يا اسطى حميدة لما نوصل بنها ..

وقال احد الافندية منتهزا الفرصة :

ـــ مش نسمع « فى العشق قضيت » يا اسطى حميده والا ايه .. ؟ احنا نرجوك رجا خصوصى ..

فأجابت الاسطي بدلال وتقل بنت الكار :

ـــ حاضر .. امسكى الرق يا سلم ..

ثم نظرت الى فاطمة وسألتها همسا بالسيم :
— بت يا فاطنه. بصي ف وشي .. هلبت ماحاجب خفيف وحاجب تقيل .. ؟
وفى هذه اللحظة حضر المفتش ليفحص تذاكر من ركب من قليوب .. فقال لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظــة :
— ما زادش عليكم حد .. ؟
فأجابته الاسطى حميده وهى تخط حاجبها الخفيف بعود الثقاب .
— ما زاد علينا الا الخطوط ..
فانصرف المفتش خشية أن تنقص هيبته بمــزاح هذه الطائفة .
وما كاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر .. حتى دوى فى العربة صوت هيئة التخت باكملها مع الآلات جميعها من عود ورق ودربكة :

« فى المشق قضيت زمانى
وهمى اليــــوم يــكفانى
آه انظروا جسمى السقيم»

فوقف المفتش مبهوتا ووقف كل القطار على رجل.
باريس — يونيو سنة ١٩٢٧

من رسائل زهرة العمر

« باريس » — شارع « بلبور » فى نوفمبر ١٩٢٦

عزيزى « اندريه » ..

لست ادرى : امن سوء حظى او من حسنه ، انى اعيش الآن فى اوروبا ، وسط هذا الاضطراب الفكرى، الذى لم يسبق له مثيل ، فهذه الحرب الكبرى قد جاءت فى الفنون والآداب بهذه الثورة ، التى يسمونها « المودرنزم » ، فكان لزاما على ان اتأثر بها ، ولكنى — فى الوقت ذاته — شرقى جاء ليرى ثقافة الغرب من اصولها ، فأنا موزع الآن كما ترى بين « الكلاسيك » و « المودرن » ، لا استطيع ان اقول مع الثائرين : فليسقط « القديم » لأن هذا القديم ايضا جديد على .. فأنا مع اولئك وهؤلاء .

انى اخرج مثلا من « متحف اللوفر » متحمسا لأعمال « تسيان » و « دافنتشى » و « فلاسكز » و « جويا » و « مملنج » و « فان ديك » ، لأدخل بعد ذلك توا معرض الخريف ، اشاهد احدث لوحات الفن الحديث ، بألوانها الصارخة « الفاقعة »، وخطوطها البسيطة العارية .

ان الفكرة المسيطرة على الفن الحديث هى : الفطرة والبساطة ، يطلبون فى الفطرة النضارة ، ويذهبون فى البساطة الى حد التركيز .. لقد غالوا فى التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن من

الآخر فصلا تاما : فالتصوير — وهوفن الالوان — يجب ان يستغنى عن الموضوع ، لان الموضوع من عناصر القصة ، والشعر — وهو فن الشعور — يجب ان يستغنى عن العقل الواعى « مذهب الدايزم » والموسيقى — وهى فن الاصوات — يجب أن تستغنى عن الشعور ، والنحت — وهو فن الأحجام — يجب ان يستغنى عن الافكار .. الخ .

وهذا قليل جدا مما جاءت به نظريات « المودرنزم » . ولا أحب الاسهاب فيها ، لأنى أكره النظريات فى الفن ، فالفن عندي خلق انسانى جميل لا اكثر ولا اقل ، وقد يكون فى « المودرنزم » نفسه — على الرغم من نظرياته — بعض جمال ، ولكن ذلك لم يدعونى مطلقا الى النداء بسقوط « رفاييل » و « لافونتين » و « بيتهوفن » ، من اجل ثورة تنادى بها طائفة تحاول — بأى ثمن — الاتيان بجديد .. لقد قرأت اخيرا لكاتبة فرنسية « مودرن » ، تقول عن حركة « المودرنزم » ما معناه : ان بعد عشرين قرنا من حضارة مفعمة بالوان البراعة الذهنية ، والحذلقة الفكرية ، وحياة الصالونات ، والاكاديميات ، غدت الدنيا مثل غانية عجوز ، مفرطة فى الزينة والبهرج والاصباغ ، بمقدار بعث فى الناس عطشا الى عصور الفطرة الاولى ، بناسها المراة واحساسها المجرد . وان قيمة الفن الحديث ، هى فى أنه يحاول أن يعيدنا الى النضارة البدائية ، والى مصادر الالهام الاولى . الحديث : سواء فى الروح او فى الاسلوب ، مستمدة حقا من الفنون الاولى مباشرة .

ان اثر مصر القديمة ظاهر فى العمارات الحديثة والنحت الحديث ، بل ان الامعان فى طلب الفن

فقول هـــذه الكاتبة صحيح ، لأن مصـــادر الفن الفطرى وصل الى حد استلهام فن الزنوج .. ان أثر الفن الزنجى واضح فى التصوير الحديث والموسيقى الحديثة ، والرقص الحديث ..

ساحدثك فى رسالة أخرى ـــ عما سمعت اخيرا من موسيقى .. انى لا اترك الآن أسبوعا واحدا دون ان اذهب الى قاعة « كونسير » « بليـــل » أو الى « كونسير » « كولون » أو « بادلو » ، بل انى أحضر حفلتين أحيانا فى يوم واحد . ولقد حضرت الاسبوع الماضى ثلاث حفلات موسيقية فى يومى السبت والأحد فقد أدوا فى الاولى : « ذهب الرين » لـــ « فاجنر » ، وفى الثانية : « السانفونى فانتاستيك » لـــ«برليوز» وفى الثالثة « السانفونى » السابعة لـــ « بيتهوفن » سوف أحدثك أيضا عن الموسيقى الاسبانية ، وقـــد حضرت فيها حفلتين : احداهما للموسيقى « هافتلر» ، كما أنى محدثك عن الموسيقى الروسية ، بعـــد ان سمعت المرة الثانية «سادكو» لـــ « مسكى كرساكوف»

وعلى ذكر « فاجنر » وصداقته المعروفة للفيلسوف « نيتشـه » كدت المس بنفسي أثر تلك الصلة الفكرية بينهما ، وأنا أصغى الى نغمة « سيجفريد » المتكررة . تلك التى يسمونها الـــ «Leitmotiv»

ان استخدام « فاجنر » لنغمة واحدة بالذات ، يطلقها رمزا لكل بطل من أبطال « أوبراته » ، ويجعلها تعود كلما عاد البطل الى الظهور : لتذكرنى بكلمة « نيتشـه » : « هناك حادثة متكررة تعود من آن الى آن فى حياة كل انسان » ..

« باريس » – شارع « بلبور » فى ديسمبر ١٩٢٦

عزيزى « أندريه » ..

ارسل اليك ما كتبته من الرواية منذ شهور ، وهو كما ترى فصل وشيء من فصل ، اقرأهما واخبرنى برايك ، وثق كما اخبرتك انه ليس فى عزمى مطلقا ان اتم هذا العمل رواية كاملة ، للاسباب التى ذكرتها لك ، وازيد عليها سببا آخر : انى لا ارى باى اسلوب بدئت ، وباى اسلوب تختتم ..

فاسلوبى الان خاضع لتطورات سريعة مستمرة . ولقد سبق لك ان اطلعت على قطعة « الحلم »،التى ارسلتها اليك ، وهى تختلف فى اسلوبها عما ستقرأ من هذه الرواية ، على ان الذى ارجوه منك هو ان تعيد الى المخطوطة ، بعد قراءتها ، لانى لا املك نسخة اخـــرى ..

« باريس » فى ٢٤ مايو ١٩٢٨

« أندريه » ..

بعـــد بضـع ســـاعات أكون قد فارقت « باريس » المحبوبة ...

أسافر هذا المساء بقطار الساعة التاسعة ، وغدا ٢٥ مايو تكون الباخرة « راولبندى » قد اقلعت حاملة جثمانى ، وان سئلت عن الروح قل روحه فى قاعـــة كونسير « بلييل » ..

« أندريه » لست املك الان من امرى شيئا ، الا الابتسام فى وجه القدر الظافر ، ولعل هدوئى راجع الى توقعى هذه الكارثة التى تعرف انى طالما ترقبت

ساعتها بذعر وفزع .. لقد وقع الأمر المحتوم ، فما تريد او أريد .. ؟ أملى الباقى معلق عليك. رسائلك يا « أندريه » على الأقل .. رسائلك تحمل الى فى صحرائى نسيم أوروبا العظيمة ! ..

أودعك يا « أندريه » وداعا حارا ، وأودع « جرمين » و « جانو » وقد رأيتهما أمس المرة الاخيرة .. أودعكم وأودع فيكم « باريس » الفن والفكر ! ..

حاشية — كنت أريد أن أحدثك عن موسيقى اليوم « ميلهو — روسل — هونجر — سترافنسكى » بمناسبة حفلات هامة قامت بهـا فرق أجنبيـة فى باريس فى الشهرين الاخيرين : فرق المانية بقيادة « ماتجلبرج » واخرى نمساوية بقيادة « برونوفالتر » ! .. ان طرق هذه الموضوعات الان لمـا يزيدنى المـا ، على انى أحب

ان أقول لك ان سخطى على « سترافنسكى » ، يوم نشر نقده المقذع « لفاجنر » و « بيتهـوفن » ، قـد زال بعضـه عند سماعى قطعته « تقديس الربيع » مرة اخرى ! .. انه على كل حال تعبير قوى لاتجـاه جديد فى الموسيقى واغراضها ، كما يفهمها هذا الروسى الثـائر .

نسيت ان أخبرك فى رسالتى السابقة أنى شاهدت رواية « هاملت » فى الشهر الماضى يمثلها خير ممثل فى ايطاليا ، حذق هذا الدور وهو «روجيرو روجيرى» ، وكنت قد شاهدتها قبل ذلك من تمثيل « موييسى » ، وهو خير من قام بهذا الدور عينه فى المانيا .. ان مجال المقارنة بين الفنيين لما يحتاج الى رسـالة طويلة ، ويكفينى ان أقول لك انه لا يوجد مكان فى العالم — ترى فيه الفنون كلها مجتمعة — سـوى

« باريس » ! .. « باريس » هى « فترينة » العالم ! نعم .. هى الواجهة البلورية التى تعرض خلفها عبقرية الدنيـا .. اكرر وداعى لك ولبـاريس ، واحـذرك يا « أندريه » من ان تحرمنى ، وأنا بمصر هذا الاتصال بالوان الفن ! ..

« الاسكندرية » فى ١٢ يونيو ١٩٢٨ ..

عزيزى « اندريه » ! ..

احفظ لك فى نفسى جميلا يضاف الى سوابقه : رسالتك الطويلة التى بانرت باطلاقهـا فى أثـرى ، فادركتنى ولما اتم الاسبوع فى بلادى ! .. اذا اردت أن تعرف مقدار اغتباطى بهذه الرسالة فاذكـر انك ضمختها بعطر فرنسا المأسوف عليها !

اود لو اكتب اليك باخبارى ومشاعرى ، ولـكنى اراها لا تساوى شيئا كلها ، أهى شىء غير اطراق طويل وابتسامة حزينة ، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع امامى ها هنا ، ويأس قاتل ، وتحرق دائم ، وأيام تجرى كالدموع الباردة ، وحياة اتمنى ردها لخالقها ان لم يعطنى حق استعمالها كما اريد ! .. هل ترانى مستطيعا ان اكون شيئا غير ذلك الان ؟ !

اختتم خطابى سريعا خشية أن يفوت موعد البريد المسافر الى أوربا هذا الاسبوع ، وانى اترقب رسالة منك ، فأنت الذى يقدر على امتاعى بالطريف القيم ، اما أنا فما عندى شىء مفيد أقوله لك ! ..

« الاسكندرية » فى اول يولية ١٩٢٨

عزيزى « أندريه » ! ..

هأنذا أسرع فى الرد على رسالتك راجيــا ان تصلك خلال شهر الراحة ، كما تقول ! .. وكل املى ان يجيئنى منك رسالة عاجلة شافية ، تربو صفحاتهـا على العشر ! .. فان اول ما يعنينى معرفته حين استلام رسائلك هو وزنها وحجمها ، غير حافل بما تحويه من كلام ، فأنا فى حاجة كما ترى الى مجـرد ثرثرتك .. أما أنت فما اظن بك حاجة الى أخبارى، لانها راكدة كالماء الراكد ، ولو بـدأ تغير قليــل فى مجراها لبادرت باخطارك .. كل ما عندى هو اننى اعيش فى جو فكرى — ان كان فى مصر ما يجـوز أن يسمى بالجو الفكرى — لا يستطيع أن يعيش فيه مثلى ، واصدقاء الماضى اصبحوا لا يصلحون اليـوم لى ، فحديثهم ونكاتهم وطريقة قتلهم للوقت لمـــا يزهدنى فى الجلوس اليهم ، وان شئت وصفا دقيقـا لحالى فهو يتلخص فى كلمة واحدة : الوحدة ! .. الوحدة فى اكمل واقسى معانيها ، أمضى اليوم فى القراءة فاذا جاء الغروب خرجت الى «كازينو سان استفانو»، لاسمع القليل من الموسيقى التى يعزفونها هناك ، وحتى فى هذا المكان الصاخب باللاهين احرص على وحدتى ، فأنزوى خلف عامود قريب « الأوركستر »، متحاشيا نظرات من أعرف ، حتى لا أكلف نفسى عبء التحية ، وهل تتصور أن يكون حالى غير ذلك ؟ ..

لا اكتمك يا « أندريه » ! .. ان صرخة خرجت من أعماق قلبى ، عندما قرأت فى رسالتك خبر حريق قاعة كونسير « بليل » ! ان ألمى لهذا الخبر سيتضـاعف

كلما ذكرت ان هذا الهيكل العظيم هو عندى رمز من رموز الفن فى « باريس » ! .. اكتب الى كتابا مطولا، اذا كنت تعتقد ان اسمى واجباتك نحوى هو التفضل على ساكن الصحراء ببعض نفحات اوروبا العاطرة .

الاسكندرية فى .. ديسمبر ١٩٢٨

عزيزى « اندريه » ! ..

اليوم الخميس ، ولم تصلنا رسالة الخميس ، وقد عودتنا ذلك ووعدتنا به ، هلا رأيت « بول سوديه » ومواظبته على ارسال مقالات الاربعاء ، لجـريدة « الوقت » عشرات الاعوام بانتظام ، لم ينقطع فى خلالها الا لمرتين : موت زوجته : وموته هو ! .. وهل تظن انك اقل من « بول سوديه » فى « وقتى » انا ؟ .. على انى اسأل لك عمرا اطول من عمره ، واعطيك اجرا اكثر من الاجر الذى كانت تعطيه اياه جريدة « الطن » ، لو كنت تقدر قيمة الود ! .. تستطيع ان تقول انى اعيش طول الاسبوع على رسالتك ، فاذا كنت تريد أن تحرمنى غذائى الاسبوعى فانت وشـأنك .

وبعـد ..

فلنتحدث فى اى شىء : قرأت مقال « فرنان فندريم » فى « بول سوديه » وهو خصمه المعروف فى المناضلات الادبية ، اى جبن واى نذالة ؟ .. مقال لو انه كتبه وتجرأ على نشره فى حياة الناقد العظيم : لمـا استطاع الاقامة بعدها فى فرنسا يوما واحدا .. ولكنه الان يقول ما يريد ، لان الميت لا يستطيع جوابا .. لقـد جرد « سوديه » من كل حسنة ، والصق به من

النقص ما يخرجه عن وظيفة ناقد .. ولكن اعجب ما جاء فى مقاله عن « بول سوديه » قوله : ان الجانب الفنى فى الاعمـــال الادبيـــة كان يفـلت منـــه دائما : لانه لم يمارس بنفسه التاليف من حيث هو خلق فنى ؟ ! .. فما قول « فاندريم » هـــذا فى فلاسفة الالمان ، ممن نقدوا الفن من «عمانويل كانت» الى « فردريك نيتشــــــه » ، وما قوله فى الذين شرحوا لنـــا ونقـــدوا فن « فيـــدياس » و « بوليـــكليت » و « براكسيتيل » وهم لم يصنعوا قط تمثالا من الطين او العجين ؟ .. وما قوله فى « جول لمتر » و «سارسى» و « تين » وقد قضوا حياتهم ينقدون فنونا لم يمارسوها قط بأنفسهم ، حتى العرب ونقاد الشعر العربى فى آدابنا ، مثل « الاصمعى » و « حماد عجرد » لم يمارسوا هذا الفن مع روايتهم لكل ما قيل فيه ، وانى لاذكر قول احد نقاد العرب هؤلاء ، وقد سألوه كما سأل — فانريم بول سوديه — لماذا لا يقرض الشعر ؟ فاجاب : انا كالمسن يشحذ ولا يقطع ، ولكن «فاندريم» يريد ان يقطع اوصال جثة خصمه وكفى ! ..

انى لم ازل أطالع رسالتك الماضية فى اعجاب .. ان فيها أشياء أقرؤها ببطء ، فتؤثر فى نفسى تاثيرا شديدا ، ذلك انها تجعلنى اتصور انى ما زلت اقيم فى حجرتى بشارع « بلبور » وا أسفاه ! .. يخيل الى انى نسيت رقم الحجرة فى الطابق الخامس ، اظنها كانت رقم « ٤٨ » لانها « هى » كانت تقطن الحجرة رقم « ٣٨ » .. انى ان نسيت رقم حجرتى فلن أنسى مطلقا رقم حجرتها . اما الببغاء .. آه يا « أندريه » ! .. ترى أين هو الان ؟ . او لم يزل يحمل اسمى كما كان ؟ .. فيظل بذلك اسمى يردد

صداه فى « باريس » .. على الاقل حتى يمـــوت البيغاء ! .. انى أعرف ان هذا الطائر طويل العمر ! نحن — معشر المصريين — نفكر دائما فى تخليـــد اسمائنا ، ولقد اتخذ جدى الاهرام لهذا الغـــرض ، ولكنى انا اكتفيت باتخاذ ببغاء .. على قدر مالى واستطاعتى .. الا ترى انى مصرى بالدم والوراثة ؟

« أندريه » ! .. اكتب الى كثيرا .. ذكرنى بحجرتى فى شارع « بلبور » . ترى من يقطنها الان ؟ .. أحد العمال ولا شك او احدى العاملات ، فهذا حى عمال وعاملات .. ومن يدرى ؟ فقد يكون من سكانهـا اليوم محبان عاشقان .. أو زوجان سعيدان . اما انا مع الاسف فلم اعرف فى هذه الحجرة غير حيـــاة شبه زوجية فاترة مع « ساشا شوارتز » ، وحيـــاة حب مع « ايما دوران » ، لم يدم هناؤه طويلا ! ..

الاسكندرية فى يناير ١٩٢٩

عزيزى « أندريه » ! ..

تسألنى من هى « ساشا شوارتز » ؟ .. عجبا ! الا تذكرها ؟ .. او لم أقص عليك قصتها من قبل ؟ .. أهان امرها على بهذا القدر الذى لم يتم ، ولا يمكن ان يتم .. ؟ !

حدث ذلك يا سيدى فى مساء يوم جميل جلستفيه مـــع « مسيو هنب » الى مائدة مشرب صغير فى « مونمارتر » . وكنا نتحدث فى أمر حوار صغير كنت قد كتبته ، ودفعت به اليه ليرى رأيه فيه ، فرآه خفيف الروح قوى التركيب سلسا سائغا ، يستلب لب القارىء استلابا .. وقال لى : « انى اراك قـــد

اعتصرت « موليير » و « بومارشيه » و « ماريفو » اعتصارا ! .. » ففرحت بقوله هذا كثيرا ، وطلبت كأسا أخرى من « البرنو » .. وما كدت أتناول منها جرعة حتى دخلت المشرب غادة ذات جسم ، ذكرنى بتمثال « افروديت » . وكان فى صحبتها شـــاب برنزى اللون جميل الطلعة كأنه « ابولون » .. ولست أدرى أسكرت من « البرنو » ، أم من اطراء صاحبى ، أم من روعة هذه الغادة .. كل ما اذكر أنى تمايلت على « مسيو هاب » صائحا : « ناد الجرســـون واطلب سكينا ! .. » فقال دهشا « سكينا ؟ .. تصنع به ماذا ؟ .. » فقلت : « أقتل نفسى عند اقدام هذه المرأة ، حبا وجنــونا وغـــراما ! .. » فالتفت « هاب » الى المرأة ثم الى صاحبها وقال لى : صدقت، ولكنها كما ترى ذات رفيق وأى رفيق .. لا امل لك أيها الصديق .. اذا أصررت على السكين فانى انادى لك الجرسون ! .. » ولبثنا ساعة ننظر اليها ونتحسر ثم نهضنا وانصرفنا كل الى شأنه ، ومضت ايام قلائل واذا مسيو « هاب » فى أثرى يبحث عنى فى مظانى ، حتى عثر بى فبادرنى صائحا : اين أنت ؟ .. اين أنت ؟ .. أيها الرجل السعيد ! .. افرح بسرعة فان عندى لك خبرا سارا .. انها لك منذ اليوم خالصـــة مخلصة ! .. فلم افهم مراده بادىء الامر ، وقلت له: عمن تتكلم ؟ .. فقال : عنها هى .. عن تلك المرأة ، فقلت : أى امرأة ؟ .. فضاق صدره بى : عجبـــا لك ! .. اى امرأة ؟ .. المرأة التى رايتهـــا فى المشرب منذ أيام ! .. فتذكرت كل شىء وصحت : حقا ! .. حقا .. اخبرنى ما خبرها ! .. فقال : « يا للحظ عندما يواتى الانسان ! .. لقد كنت بهذا المشرب

البـارحة ، واذا بى ألمح امرأة جالسـة الى مائدة بجوارى أمامها « بوك » من البيرة لم تمسه شفتاها ، وقد أخفت وجهها فى منديلها ، وطفقت تبكى بكاء مرا .. فعجبت لامرها ولبثت أرقبها حتى تبينت آخر الامر انها صاحبتنا « افروديت » ، فتحينت منها الفرصـة وحادثتها ، ولم ازل بها حتى اطمأنت الى ، وكشفت لى عن بلائها : صاحبها البرونزى اللون وهو اسبانى يدعى « جارسيا » ، قد هرب الى بلاده ، وهجـرها بلا مأوى ولا نقود ولا معين .. وهى اجنبيـة هى الاخرى ــ المانية او روسية لست ادرى على التحقيق اسمها « ساشا شوارتز » ، وهى تجيد الفرنسية ، وقد كانت تعمل « سكرتيرة » فى احدى وكالات السفر، فالتقت بهذا الشاب الاسبانى فاستلب لبها واخرجهـا من عملها ، وختم قصته معها على هذا النحـو ، وليس من اليسير ان تجد سريعـا عملا يقيهـا شر الجوع ، فهى لا ترى فى رأسها غير افق حالك ، تبدو منه فكرة الانتحار ، كأنها شمس سوداء ! .. فبادرتها صائحا مرتاعا ، « تموتين ؟ .. انت ؟ .. مهـلا يا سيدتى مهلا ؟ .. تموتين وعندى شخص يمـوت فيك حبا وهياما وغراما ! .. فنظرت الى بعينين كلهما دهش واستفهام ، فاخبرتها بخبرك وضربت لها موعدا مساء اليوم بذلك المشرب لاقدمك اليهـا .. كل امل هذه المرأة الان هو ان تجد لهـا مأوى ومعينا، ولا شك عندى فى انك مستطيع ان تحقق لها هذا الامل .. » تصور ذهولى يا « اندريه » وانا اسـمع من مسيو « هاب » كل هذا .. لقد حسبته يمزح ولكن الموعد حانت ساعته ، فلم ار فائدة فى اللجاج ، فجلست معه انتظر ، واذا بالفعـل .. ابصر لدهشـتى

« افروديت » تدخل علينـــا فى حال كســيرة ، وقــد افسدت الدموع اهدابها ، وانساها الحزن الالتفات الى هندامها ، فنهض « هاب » لاستقبالها ونهضت انا ايضا كالخجل المأخوذ ، وحياها صاحبى الطف تحية وقال لها باسما وهو يقدمنى اليها : « كنت تريدين الانتحار يا آنستى ، فها هو ذا شيء اهــون قليلا من الانتحار .. » فنظرت الى الفتاة بابتســامة وديعة ، فيها اثر الحزن وفيها ايضا الاستسلام ، وكان كل شيء فيها ينطق : « ليس الان اوان الفحص والفرز والاختيار » ، وتركنا « هاب » ، وقد رأى أن مهمته قد انتهت ، فلبثنا وحدنا لحظة صامتين ، لا ادرى ماذا اقول .. الى ان سألتها آخر الامر عن أمتعتهـــا فقالت لى : انها مودعة عند صديقة لها متزوجة . اضافتها الليالى السابقة .. ولم يعد من اللائق ان تفرض ضيافتها على اسرة اكثر من ذلك ، وكانت تلك الاسرة تقطن ضواحى « باريس » والوقت ليل ، فراينا أن نرجيء طلب الامتعة الى الصباح وذهبت بالغادة الحزينة الى احد المطــاعم فتعشينا ، وانا احــاول اضحاكها والتسرية عنها ، ثم قدمتها الى مسرح تعرض فيه رواية « فودفيل » مفرحة ، فانتعشت قليلا ، وضحكت مع الضاحكين ، وخرجنا وقــد انست الى بعض الشيء ، وبدأت تتوطد بيننا الالفة ، وذهبت بها الى حجرتى بشارع « بلبور » ، فسرت كثيرا بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة ، وما فيه من ادوات لشيء اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز ، وسألتنى ان اعيرها تلك الليلة « بيجاما » مما ارتديها للنوم ، ففعلت ، وتشاغلت بالنظر فى كتبى المكدسة فوق المكتب ، ولك أن تصدق أيها الخبيث « أندريه » أو لا تصدق ، فو الله

لم احاول اختلاس النظر اليها ، وهى تخلع ثيابهـا ولا اذكر اين فعلت ذلك .. هل خلف خزانة الثياب او فى المطبخ ، كل ما اذكر انها طلعت على فجأة وهى مرتدية « البيجاما » ، ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء ، فوقع الكتاب من يدى ، فابتسمت .. ابتسمت « افروديت » ، وكانت ليلة لا تنسى .. وبزغ الصبح، وفتحت عينى وقد راحت السكرة ، وجاءت الفكرة .. ونظرت الى تلك المرأة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى: « ماذا أنا صانع بها .. اليوم الاحد وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر .. هل أصحبها ؟ .. انهـا لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أو سبع ساعات ، كما افعل ، واذا احتملت فانها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحدة ، كما أصنع ، واذا فعلت فانها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى ، وتفسد على نظام تفكيرى .. ثم انها ستغير برنامج حياتى ! .. انى الان آكل واعمل وقتما وحيثما اريد ، ان حياتى غير المقيـدة بمكان ولا بزمان ولا بانسان ستصبح منذ اليوم داخل اطار محدود من صنع هذه المرأة .. انها عبء وتبعـة ، انى لم أخلق لاسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى ! ونهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى ، وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتهـا : انى رجل بوهيمى ، لا يصلح لرعايتك ، والسهر على راحتك ، فارجو ان تخلينى من تبعة اسعادك ! .. فانى لست لهذه النعمة باهل .. » ! .. والقيت عليهـا نظرة أخيرة ، وهى فى نومها العميق المطمئن .. وانصرفت .. ذهبت توا الى مسيو « هاب » ،واخبرته بما حدث فكاد يصعق ، فهدأت من روعه وضاحكته

قائلا : « لا تنس أنى رجل شرقى متوحش ! .. المرأة عندى يجب أن تحبس فى « الحريم » أو على الاقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى ، اذا ارادت « ساشا » أن تتخذ من مسكنى مأوى لها ، فلا مانع لدى .. على شرط تتركنى حرا .. فلا خرج معى .. ولا تشعرنى بان لها فى حياتى وجودا ! » ..

ففهم « هاب » مرادى وقال : « لا بأس ! .. اظنها ترضى بهذا الشرط .. ولكن نفقات طعامها ؟ .. فقلت له : « فى مقدورى أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات أو تسعة فقال « هاب » : « لغذائها وعشائها معا ! .. » قلت « نعم » فقال : « اجعلها عشرة فرنكات » ! .. فقبلت ، وتعهد هو بان يلقاها فى ذلك اليوم ، ليعرض عليها هذا الوضع الجديد ، وانصرفت أنا الى « متحف اللوفر » ، فغرقت طول يومى فى قاعة الفن الاغريقى متنقلا بين تماثيل « بالاس » و « ابولون » و « فينوس » فى أوضاعها المختلفة .. آه يا « أندريه » .. ان فن الاغريق هو تجميل الطبيعة الى حد اشعارها بنقصها .. لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : انظرى .. كان ينبغى ان تصنعى هكذا ! ..

ومضى أكثر النهار ، فدلفت الى قاعة الفن المصرى القديم . ولا يفصل بينها وبين قاعة الاغريق ــ كما تعلم ــ غير باب صغير ، ما كنت أتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب .. انه عالم آخر .. ان فن مصر القديمة هو تحد صارخ للطبيعة ، لكأنهم يقولون للطبيعة : انظرى .. لا شأن لنا بك .. ولا بمخلوقاتك

اننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات اخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال » على أن الذى استلفت نظرى فى هذا الفن ، هو أن اسلوبه قد أوحى الى اسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر الى حد كبير ، وخرجت من « اللوفر » وانا اقلب فى راسى الملاحظات والمقارنات .. وذهبت الى مطعم صغير أتناول عشائى .. ثم عدت الى مسكنى فوجدت المسكينة « ساشا » قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب :

« سيدى ! .. انك لا تريدنى ، ولكنى ابحث عبثا ، واستعرض فى ذاكرتى كل ما حدث امس ، فى المساء والليل : علنى اجد اللحظة ، التى اكون قد خيبت ظنك فيها ، وليس فى مقدورى سؤالك او الاستفسار منك ، فلقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التى تدعونى فيها — على نحو ظاهر — الى الرحيل ! .. اذن .. فلم يبق لى الا ان اسير فى طريقى .. اود على كل حال لو حدثتك مرة اخرى ! .. فاذا لم تر باسا فى ذلك فانى أرجو منك أن تبعث الى كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى أعلى خطابى » .

فى الحق يا « أندريه » انى تألمت وندمت ، لقد كان تصرفى خاليا من الرفق والرحمة ، ولبثت افكر وانا اجيل النظر فى حجرتى الخالية .. ان وجود هذه المرأة هاهنا ليس عبثا بالقدر الذى تصورته .. انها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى ، فتغير قليلا من هذا الجو المغبر بتراب الكتب . ما أجملها عندما كانت مرتدية ثوب النوم الذى أعرتها اياه البارحة !! .. ليتها تعود .. ما أوحش الليل بدون امرأة ! .. وقضيت ليلة مضطربة ، وفى اليوم التالى ذهبت اليها

فى مسكن صديقتها . وحملتها هى وأمتعتها فى سيارة ، وعدت بها الى حجرتى بشارع « بلبسور » ، وأخبرتنى فى الطريق أنها التقت بمسيو « هاب » فى اليوم السابق ، وأنه أخبرها بالشرط والنظام الجديد ، فعاهدته على القيام بتنفيذه على أدق وجه ! .. وهكذا استقر بنا الحال أياما : وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحدا وأعطيتها الآخر : فاذا كان الصباح تركته لها فوق مكتبى المرتكات المشرة ، ثم انطلقت حرا طول يومى ، فلا أرى لها وجها الا ليلا .. هناك أحيان يحلو لى فيها أن ألزم حجرتى : لأكتب الساعات الطوال .. فما كانت تنبس بحرف ، بل كانت تقرأ ، تقرأ كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة .. لقد عجبت أول الأمر لكثرة مطالعتها ولاجادتها لغات عدة .. الى أن قصت على نشأتها .. وعلمت أنها ابنة مدير احدى شركات السكك الحديدية فى ألمانيا .. فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار « المارك » والنظام الاقتصادى الألمانى : انهارت أسرتها أيضا : فمات أبوها ، وتشرد اخوتها واخواتها فى أرجاء أوروبا ! ..

ونزحت هى الى « فرنسا » حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر ، حتى فقدته هو الآخر ، جريا وراء قلبها ! .. انها بوهيمية من الطراز الأول ! .. على أنها لم تفهمنى أيضا ، كما كان ينبغى، فانه لم يمض على نظامنا هذا عشرة أيام ، حتى نسيت مراميه وأعراضه ، واذا هى تترك لى فوق مكتبى هذه الكلمة :

« عزيزى ! .. انك تتغيب طويلا .. لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ، ومن وجودى ، على الرغم من

الجهد الذى ابذله حتى لا اضايقك او اثقل عليك ! .. وحدتك هذه تكاد تشعرنى بأنها مظهر استياء منى ، وانى لابحث عبثا عن السبب .. يا صديقى العزيز ! انى لارجوك من كل قلبى أن تخبرنى عما لا يعجبك منى ! .. قلها بصراحة .. فربما كان فى الامكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذى يصل احدنا بالاخر ! .. هذه الثقة ، والاطمئنان الذى تخلو منه نفسى فى هذه اللحظة ، ربما كنت مخطئة فى هذه التقديرات ! .. ربما كنت مسرفة فى الوهم . فاخذت شغلك بعملك على انه شغل عنى ! .. مهما يكن من أمر فطمئنى بكلمة ! .. انى حزينة جدا .. انى خارجة أستنشق بعض الهواء . وارفه عن نفسى قليلا .. ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من ان اخلاصى هو لك وباق لديك ! .. » .

الواقع يا « أندريه » انى اعجبت لهذا الخطاب ! .. ان الاخلاص او الحب ، أو اى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأى حال ! .. وانى لاعلم ان « ساشا » لم تحبنى على الاطلاق ! .. حقيقة هى لم تذكر لى شيئا عن صاحبها الاسبانى منذ مجيئها ، ولكن ليس معنى ذلك انها نسيته ! .. لقد كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم ، وكنت انا اكتب على مكتبى او اطالع ، واذا بى اسمع صوت عبرات مكتومة ، فرفعت عينى فوجدتها تحاول اخفاء بكائها ، فسألتها عما بها ، فكانت صريحة وقالت : ان يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » واقاصيص نموذجية من اعمال « سرفانتز » فغمرها فى ذكريات ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها :

« لم اكن أعلم أنى أجد هنا كتبا اسبانية » ، فقلت

لها : عجبا ! .. او كنت تريدين ان اتجاهل الادب الاسبانى ، واستبعد مؤلفات « سرفانتز » ، ومسرحيات « كالدرون » ، وكوميديات «لوب دى فيجا» لان لك خليلا اسبانيا ؟ .. » اجل يا « اندريه » .. لم يكن بيننا حب قط .. ولا انكر اننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة ! .. هذا شيء لا يمكن ان يحدث مع امراة موجودة .. موجودة امامى فى كل وقت ! .. ان اللحظة الوحيدة التى احببتها فيها حقا هى ساعة دخولها المشرب اول مرة مع صاحبها الاسبانى ! . انها كانت رائعة ، لأنها كانت شيئا فى السماء ، مثل كوكب يتلألأ ، لا يمكن ان تمتد اليه يدى ، ولكن هذا الكوكب ما لبث ان وقع فى كفى ، فاذا هو مصباح ضئيل ، يحتاج الى يدى القاصرة لتملأه بالزيت ، وتحميه من التحطم والسقوط ! .. انى لم ازل احب « ايما » لانها شيء بعيد .. غير موجود فى كل وقت ، يصل الى غناؤها من نافذتها : كأنه شعاع يأتينى من بعيد ! .. انها اعطتنى بعض اسرار نفسها وجسمها .. ولكنها مع ذلك ليست فى يدى ، شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصي علينا .. ان الحب قصة لا يجب ان تنتهى .. قصة « ايما » مستمرة لا تريد ان تنتهى .. ان الحب مسالة رياضية لم تحل .. ان جوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد ان يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » او « المطلق » . ان حمى « الحب » عندى هى نوع من حمى « المعرفة » واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق .. ماذا يكون حال الوجود لو ان الله قذف فى وجوهنا — نحن الادميين — بتلك المعرفة او ذلك المطلق الذى نقضى حياتنا نجرى وراءه ؟ ! .. لا استطيع

تصور الحياة يومئذ ، انها ولا شك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكر وعاطفة ، فكل ما نسميه جمالا وفكرا وشعورا : ليس الاقبسات النور التي تخرج اثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق والمجهول ! ..

لو أن « ايما » قبلت ان تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظهـــا عندى حظ « ساشا » ، هنا الفـــرق بين « الغـــرام » او « الزوجية » ! ..

انى أدرك الان لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين اذا تزوجا ، وقد يعود الى سابق اشتعاله اذا عادا خليلين ، لكل منهما حياته المنفصلة .. ان الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال .. لهذا كله كانت حياة « ساشا » معى أقرب الى الحياة الزوجية الخاليـــة من اى عاطفة قوية ، فما معنى خطابها هذا الذى كتبته اليوم ؟ .. اتراها انوثة المرأة ، تنسى كل شرط وكل اتفاق ، ولا تذكر الا الرغبة فى ان تشـــغل قلب الرجل ؟ .. وماذا انا قائل لها ؟ .. ما دمت أوقن بأنها لا تحبنى ! ؟ ..

وطويت رسالتها وطرحتها جانبا ، ومضيت فى عملى ومطالعاتى .. الى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يومية ، واخبرتنى مبتهجة بأنها وجدت لنفسها عملا ، فلقد قرأت اعلانا فى الجريدة لاحد المسارح الراقصة . يطلب فتيات لهن أجسام جميلة تصلح لرقص المجموعة . فتقدمت فى الحال وكان نصيبها للفوز ، فما من شك ان جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل ! .. على ان المسرح لن يعطيهـــا بادىء الامـــر أكثر من

خمسمائة من الفرنكات فى الشهر ، وقالت لى وهى تخلع قبعتها ، وتنثر فى الهواء شعرها الأشقر :

« لا استطيع كيف أشكرك على معونتك لى ولكنى ارجو منذ الغد ان تكف عن منحى الفرنكات العشرة . على أنى لم ازل بعد فى حاجة الى مشاركتك حجرتك ، لأن ربحى — كما ترى — لا يسمح لى حتى الان باقتناء مسكن خاص ! » . .

فقلت لهـــا :

« يا عزيزتى ! . . الان فهمت سر خطابك ! . . احسبت أنى أهرب منك ، استياء وتبرما وضيقا بعبء العشرة الفرنكات ! . . فخرجت تبحثين عن عمل ؟ . . على كل حال ، أنت حرة فى شئون حياتك ، وانى دائما عند تعهدى بان اكون فى معونتك وخدمتك على الوجه الذى تريدين ! » . .

واستمرت حياتنا المشتركة تجرى فى مجرى هادىء ، فكلانا له شغل منفصل عن الاخر ، وحياة مخالفة لحياة الاخر . . لا يجمعنا الا الليل فى فراش واحد ، ولم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير فى نوع عمليتنا او المقارنة بين حياتى وحياتها ، منذ ذلك اليوم ، فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب ، وهى راقصة فى مسرح راقص من طراز « الفـولى برجـير » او « المولان روج » . . لست اذكر اسمه ، ولعلى لم اسألها عنه ، ولابد انها أخبرتنى باسمه ويحذره ، فلم احفل بذلك ، ولم أع ما قالت ، ولم انصرف بذهنى عما كنت أقرؤه وقتئذ . او افكر فيه . . ولم اشـــعر أنا بتغيير فى نظامنا ، سوى انقطاعى عن منحهـــا أى نقود ! . . لقد حدث تغيير فى نظام حياتها هى : فهى

تعود الى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل فى آخر قطار من قطارات « المترو » ، تعود « بالماكياج » مطلية من راسها الى قدميها بالاحمر والابيض .. فليس فى مسرحها ولا فى بيتنا حمام ، فتدس جسمها المطلى فى الفراش على هذه الصورة .. لقد انزعجت حقا اول الامر ، يوم نهضت فى الصباح ، فابصرت جسمى انا الاخر قد نضج بتلك الالوان .. ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد ، انها تعلمت التدخين بالطبع ، وأنا أكره رائحة الدخان .. فالويل لى عندما كنت آوى الى فراشى ذات ليلة مبكرا .. انها كانت تعود آخر الليل والسيجارة فى فمها ، وتسير فى الحجرة على اطراف قدميها حتى لا توقظنى ، وتطرح معطفها الثقيل من جسمها العارى — الا من « مايوه » الرقص — وتذهب الى المطبخ فتأتى بشطيرة خبز داخلها سردينة ، فهى جائعة ، وتجذب من بين كتبى قصة « لفلوبير » أو « بلزاك » أو تمثيلية « لبورتوريش » أو « لينورمان » .. فهى مقيمة على عادة القراءة قبل النوم .. وتضىء المصباح الكهربائى على راس السرير ، ثم ترفع عنى الغطاء برفق وحذر .. وتدخل الفراش الى جانبى ، بسردينتها ودخانها وكتابها واحمرها وابيضها ، وتحسب بعد ذلك كله انها حرصت على عدم ايقاظى وازعاجى ! .. لطالما نهضت لانهرها واطلب اليها ان تبطل هذا كله وتنام . فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصة ! ..

وكنت اقول : « تتمين قراءة القصة ؟ الليلة ؟ ! » .

الواقع انها كانت سريعة القراءة الى حد كان يدهشنى ، انها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة ، وانا الذى اقرؤها فى يومين او ثلاثة ، ولكن

هنالك فرقا هائلا بين قراءتى وقراءتها ! .. انهـــا تقرأ للحكاية فى ذاتها . أما أنا فـلا تعنينى حــكاية الكاتب ، بل يعنينى فنه ، وسر صناعته ، وطريقـة أسلوبه فى البناء وخلق الاشخاص ، ونسج الجـو ، واحداث التأثير ! .. انى أعيد أحيانا قراءة الفصل الواحد ، بل الصفحة الواحدة مرات .. لكم أعدت قراءة « موابير » ، لا لشىء غـير دراسـة طريقتـه فى تقـديم الاشخـاص ، ورسـم أخلاقهم ! .. تلك الطريقة التى تختلف أحيانا ، وتتغير فى كل رواية من رواياته .. لذلك لم تكن قراءة « ساشا » تصـلح أساسا حتى للمناقشة ومبادلة الراى .. وما كنت اجنى منها الا ذلك المصباح المسلط على رأسى ، والدخان الذى يضيق به صدرى فى ذلك الهزيع الاخير من الليل .. انها كانت أحيانا تخشى غضبى فتقفز فى مطالعتها فصلا أو فصلين وتصل الى خاتمة الكتاب سريعا ، ثم تطفىء النور ، وتجذب الغطاء فوقهـا جـذبة تتركنى أنا فى العــراء ، فلا أتمالك نفسى ، واقرصها قرصة تصرخ منها فى جوف الليل ! .. ويأتى النهار ، فتستيقظ فى الضحى ، وأبقى أنا فى السرير كسلا .. وتسرع هى الى ثياب الخروج ، فترتديهـا لتذهب الى المسرح فى ميعاد التجارب « البروفات » .

لبثنا معا فى هذه الحياة ثلاثة أشهر ، لم يختـل نظامها أو قل « فوضاها » قيد شعرة . حتى تعودت احتمالها ، فندر غضبى أو ضجرى ، وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام ، فكانت تسألنى أن أطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص .. فما كنت أقبـل ذلك .. لست أدرى لماذا ؟ .. أما هى فكانت تسألنى رأيى فى بعض الحركات الجديدة لرقصها ، فكنت أتبرم

بذلك ايضا ، فهذا ليس فى عرفى رقصا فنيا ، فالرقص الفني عندى هو « بافلوفا » و « فوللر » و « ايزادورا دونكان » ، ورقص الجوقات والمجاميع فى «الاوبرات» الرفيعة ، او فى « الباليه الروسى » . أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى ، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأســـها وذراعيها فى الحجرة ، فلا اجد مفرا من النظر ! ..

كنت اقول لها ان رقصها هذا فى المجموعة جماله ليس فى ذاته ، بل فى التناسق العددى لـــكميات الاذرع والسيقان التى تتحرك فى وقت واحد ، وليتـــه مـــع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى راقصات المـــابد الهندية ؟ ! .. ولقد الحت على الحاحا شديدا فى ان اذهب مرة لمشاهدتها على المسرح .. واحضرت لى تذاكر مجانية ، فلم اجد من نفسى يومئذ حافزا على الذهاب ، وليتنى ذهبت ! ..

وكاد ينتهى الشتاء فجاءتنى ذات يوم تقـــول ان المسرح سيوفد الفرقة الراقصـــة لتقـــوم برحلة فى « نيم » أو « اورانج » و « افنيون » فى جنوب فرنسا، وقد تستغرق الرحلة شهرا أو شهرين ، وجعـــلت تتجهز للرحيل ، وهى ترجونى وتزين لى ان اذهب معهم فى هذه الرحلة ، فضحكت للفكرة .

« اذهب فى رحلة الراقصات باى صفة وعلى اى وضع ؟ .. ابصفتى صديق الراقصة ؟ .. هـــذا جميل جدا ! .. ومن يدرى ، ربما عدت من الرحلة، وقد عينت نهائيا راقصا بالفرقة ، أو شيئا من هـــذا القبيل ؟ .. كلا يا عزيزتى « ساشا » ! .. انى لا أستطيع أن أترك باريس » و « اللوفر » و «الكتب»

و « الحى اللاتينى » و « مونمارتر » و « بلبور » ..
اذهبى انت وسيرى بمفردك ، فى طريق حياتك ، وانى اتمنى لك التوفيق والنجاح ! » ..

وودع احدنا الآخر وداعا حارا وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة ، لعودتى حريتى الكاملة الى وحدتى المطلقة ! ..

العقلية المصـرية

... لا ريب ان العقلية المصرية قد تغيرت اليـوم بعض التغيير ! .. ولكن كيف تغيرت ؟ .. هـذا هو موضوع الكلام .. ان شئون الفكر في « مصر » حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربي وتقليده ! . كنا في شبه اغماء ، لا شعور لنا بالذات .. لا نرى انفسنا ، ولكن نرى العرب الغابرين ! .. لا نحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم ! .. لم تكن كلمة « انا » معروفة للعقل المصري ، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد ! ..

وجاء الجيل الجديد فاذا هو امام روح جـديد ، وامام عمل جديد . لم يعد الادب مجرد تقليد او مجرد استمرار للأدب العربي القديم في روحه وشكله ، وانما هو ابداع وخلق لم يعرفهما السلف ، وبدت الذاتيـة المصرية واضحة ، لا في روح الكتابة وحدها بل في الاسلوب واللغة ايضا .. لقـد بدانا نعي ونحس وجـودنا ! ..

واول مظاهر الوعي شخصية الاسلوب ، واستقلال طريقة التعبير ، وما يتبعها من الفاظ واخيلة .. كل هذا اصبح اليوم جليا معـروفا ، ولم اكتب هـذه الصفحات من اجله ، فحاجة مصر الى الاسـتقلال الفكري امر لا نزاع اليوم فيه ، ولقد مضى الـكلام في هذا ، انما الامر الذي يحتاج الى كلام هو معـرفة

مميزات الفكر المصري : معرفة أنفسنا حتى تتبين لجيلنا مهمته .. لقد فهمنا مميزات الاسلوب والشكل، وما فهمنا بعد جيدا مميزات النفس والروح ! ..

ما هي مميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر والمستقبل ؟ .. ما روح مصر ؟ .. ما مصر ؟ .. ان اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة ، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الاخرى الغالبة ، وان اول واجب علينا هو استخراج احد العنصرين من الاخر ، حتى اذا ما تم تمييز الروحين — احداهما من الاخرى — كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهم ، وكان لنا أن نقول للناس : ها نحن أولاء قد انرنا لكم الطريق الى انفسكم فسيروا » ! ..

لابد لنا اذن أن نعرف من المصري ومن العربي ؟ . هذا السؤال القيته على نفسي منذ سنوات معدودة اذ كنت أطيل النظر في الفنين المصري والاغريقي ؟ .. واذكر اني اثرت هذه المسألة امام بعض الباحثين ، واذكر اني لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد في فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الادميين عند المصريين مستورة الاجساد ، وعند الاغريق عارية الاجساد ؟ .. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، كل شيء في « مصر » مستتر خفي عند المصريين ، عار جلي عند الاغريق ! .. نعم كل شيء في مصر خفي ، كالروح ، وكل شيء عند الاغريق جلي ، كالمنطق ! .. في مصر الروح والنفس ، وفي اليونان المادة والعقل ! .. نظرة أخرى في اسلوب النحت تدعم هذا الكلام .. ان المثال المصري لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هي شكل

ظاهر ، انما تعنيه الفكرة ، انه يستنطق الحجر كلاما وافكارا وعقائد ! .. على انه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى ! .. يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال ! .. يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شيء بكل شيء ! .. يشعر بالكل فى الجزء وبالجزء فى الكل ، وتلك اولى علامات الوعى فى الخلق والبناء ! ..

هذا كله يحسه الفنان المصرى ، لان له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ الى ما وراء الأشكال الظاهرة، لتحيط بقوانينها المستترة ! .. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن ! .. انه يريد أن يصور روح الأشكال لا اجسامها ، وما روح الشكل الا القانون العام الأعلى المستتر خلفه ! .. ان ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض الهى ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون ! ..

كل شيء فى مصر الهى ، لان « مصر » التى منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد فى سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة .. حظها فى هذا حظ « الهند » ، أمة كثيرة الخير دانية القطوف ، لا حاجة بها الى الكفاح ، ولا عمل لها الا استمراء ترف الحكمة العليا .. انقطعت هى أيضا من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح ، لأنهما قد شبعتا من المادة ، والاغريق على النقيض : أمة لم تتشبع من المادة .. أمة نشأت فى العسر والفاقة

.. ارضها لا تدر من الخير الا قليلا .. كان لزاما عليها الكفاح فى سبيل العيش ، وكان حتما عليهـــا الجرى وراء المادة .. حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب فى مشارق الأرض ومغاربهـــا ، على هذا النحو لم يكن للاغريق ذلك الضمير المطمئن ، ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الايمـــان بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الارض والحياة! ان عاطفة الاستقرار والايمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل الى ارض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق واختلاف العلماء فى أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا فى مصر قبل التاريخ المعروف . ولقد ظهرت الحضارة المصرية فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة ، كمـــا يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق ! .. ولقد قال « سولون » : ان الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبـــدأ التـــاريخ : « قارة لاتلانتيد » أترى كانت الحضارة المصرية استمرارا لتلك المدنية المندثرة ؟ .. لم يقم دليل على كل فرض ، « مصر » أمة مستقرة مؤمنة ، زهدها عمرها الطويل، وخيرها الكثير فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر اثرهما على وجه الفن المصرى، ولا شىء يدل على عواطف امة وعلى عقليتها مثـــل فنها ، فلقد طالع العالم الحديث على وجـــه الفن المصرى الصرامة والجد والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » نعتـــا من نعوت هذا الفن ، ولا افتح كتابا فى الفن الاغريقى

الا وجدت كلمة « الحياة » ، وكلمة « الانسانية » من نموت هذا الفن ! .. نعم ، الحياة هى كل شىء عند الاغريق ، قد يدفعهم حب البحث الى لمس حدود الحياة الاخرى ، فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح ! .. فلسفتهم العقل والمنطق والحياة ! .. فلسفة الحركة لا فلسفة السكون ! ..

عند « مصر » و « الهند » السكون ، وعند « الاغريق » الحركة .. قرات حديثا « المقبرة البحرية » لـ « بول فاليرى » ، وهو المتصل اتصالا مباشرا بالفلسفة اليونانية ، فاذا هو يشير فى قصيدة الى الحركة والسكون ، واذا الحركة عنده من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض « زينون » الأيلياتى فى انكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة ، أى الحياة على قصرها وفنائها ، فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة ، ولم يفهم رأيى روح « مصر » و « الهند » ! ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى ، فان دون هذا الاشراف والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى ! .. هذه هى الصعوبة فى فهم « مصر » و « الهند » ، وهذا ما جعل الفن المصرى سرا مغلقا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس الى دراسة اليونان وحدها ، فهى واضحة المعنى يسيرة المنال ، لانها لزمت شاطىء الحياة ! ..

حظ « الاغريق » فى كل هذا حظ العرب أيضا : أمة نشأت فى فقر لم تعرفه أمة غيرها .. صحراء قفراء .. قليل من الماء يثير الحرب والدماء .. جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة .. أمة لاقت الحرمان وجها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار

وجرى الانهار ورغد العيش ومعنى اللذة الا فى السير والأخبار . كان حتما عليها الا تحس المثل الاعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، والوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى ! .. أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع ! .. كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافا ، لان كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف ! ..

عند الاغريق الحركة ، أى الحياة ، وعند العرب السرعة ، أى اللذة .. لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافا ركضا على ظهور الجياد .. كل شىء قد يحسونه الا عاطفة الاستقرار وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم ارض ولا ماض ولا عمران ؟ .. دولة انشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا ارض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا « ميتولوجيا » ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ، ولا احساس بالبناء ! .. لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة او فى الأدب او فى النقد .. الاسلوب العربى فى العمارة من او هى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن ، واذا عاش لليوم فانما يعيش بالزخرف .. فن الزخرف العربى هو الذى انقذ العمارة العربية .. ان العمارة العربية — الا فى « مصر » — ما هى فى رايى سوى زخرف لا بناء ، فلا اعمدة هائلة ، ولا جبهة عريضة ، ولا وقفة ولا بساطة عظيمة ، ولا روعة عميقة ، انما هى

وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع : يبهر البصر ، ولا فكر خلفه ! ..

اما فن الزخرف العربى فى الحق اجمل واعجب فن للزخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شىء عند العرب زخرف .. الادب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، انما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس : « فسيفساء » اللفظ والمعنى ، و « ارابسك » العبارات والجمل ! .. كل مقسامة للحريرى ، كأنها باب لجامع المؤيد : تقطيع هندسى بديع ، وتطعيم بالذهب والفضة ، لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذا بالبهرج الخلاب ! .. كذلك الغناء العربى « ارابسك » صوتى ، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء ، كما فى « الديتيرامب » أو « الاوركسترا » الاغريقية ، او كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرا بسيطا مستقيما ! .. انما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم، كأنها « ستالا كتيتات » حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه . كان هذا فى المهد الاول للموسيقى، اذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية ، تخرج من القلب تعبيرا عما فى القلب ، او رمزا لفكرة من الافكار ! .. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ، ولا يريدون الا التعبير المباشر بغير رموز الا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا اكثر ولا اقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا اكثر ولا أقل . ولقد حاول

« الفارابي » – فيما أذكر – التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الاغريقية ، وكان لابد له من الاخفاق لأسباب قد أذكرها بعد ! ..

كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس الا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ، ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور » الفارسي .. قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند العرب ، غير أني اعتقد في براءة الدين ، فان العرب كانوا دائما ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طباعهم : لقد حرم الدين الشراب ، فأحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في ادب امة بأحسن مما وصفت في الادب العربي ! .. لا شيء في الارض ولا في السماء يستطيع ان يحول بينهم وبين اللذة ..

اما النحت او التصوير الكبير فليس في طبيعتهم ، لان تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها احساسا عميقا بالتناسق العام ، مبناه التأمل الطويل ، والوعي الداخلي للكل في الجزء ، وللجزء في الكل ، وليس هذا عند العرب ، فهم لا يسرون الا الجزء المنفصل ، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد .. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الادب ، لانهم لا يحتاجون الا للذة الجزء واللحظة .. قليل من الكتب العربية في الادب يقوم على موضوع واحد متصل ، انما اكثر الكتب « كشاكيل » في شتى الموضوعات تأخذ من كل شيء بطرف سريع : من حكمة واخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية ، حتى اذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل ادب على البناء ، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ، ولا « تر

واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ، لانها تتعجل اللذة . يكفيها بيت شعر واحد او حكمة واحدة او لفظ واحد أو نغم او زخرف لتمتلىء طربا واعجابا ، لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوى واشباع لذات الحس حتى الحكمة ، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : اشباع لذة المنطق ، والمنطق جمال دنيوى .. ولا أستغرب غضب « نيتشه » على « ايروبيد » لاسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى ..

من المستحيل اذن ان نرى فى الحضارة العربية كلها اى ميل لشئون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه « مصر » و « الهند » من كلمتى الروح والفكر .. ! ان العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها فى هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت الا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء ، وقد كان .. ان موضع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضع الـ « سكيرتزو » من سانفونية « بيتهوفن » : نغم سريع مفرح لذيذ ..

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء .. ! والعرب هى المادة ، هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف .. !

مقابلة عجيبة ، مصر والعرب وجها الدرهم ، وعنصر الوجود .. ! اى ادب عظيم يخرج من هذا التلقيح .. ! اننى أؤمن بما اقول ، واتمنى للادب المصرى الحديث

هذا المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف .. ! تلك ينابيع فكر كامل ، ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لهـــا من نظير .. ان اكثر المدنيات يميل : اما الى ناحية الروح، واما الى ناحية المـــادة ..!

حضارة واحدة قيل انها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة ، وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة « الاغريق » .. ! نعم أعود فأرد الى أمة « الاغريق » اعتبارها ، واعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثرا بعض الشىء بكلام « تين » و « تين » عقل خلاب ، لكنه عقل ، والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحى للمدنيـــات .. ما هدانى الى الحق الا القلب .. الا طول تامـــلى فى جبهة « البارتينون » هى دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى الى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشىء آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميليوسين » ان جاءتنى ببينة اخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف ، وذكرت من فورى ان أصل الاغريق جنسان مختلفـــان : « اليونانيـــون » القادمون من آسيا ، المعروفون عنـــد اليهود باسم « اليافانـاس »أى عباد « يونا » ، و « الدوريون » الحربيون البرابرة الهابطون من الشمـال ، والــــه اليونانيين هو « ديونيزوس » واله الدوريـــين هو « أبولون » . وها هنا تنقسم الاغريق : فى هــــذا الصراع بين « ديونيزوس » رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة .. وبين « أبولون » رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بـــين الـــروح

والمادة وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعي ، « ديونيزوس » اله آسيوى فيما يخيل الى ، جلب من « الهند » بلامراء ، فغدا في اليونان ينبوع الموسيقى. لهذا السبب قدرت اخفاق « الفارابى » فان الموسيقى الغرب من عباد « أبولون » وهــم لا يشعــرون ان والوعي والمنطق العقلى والظاهر المحسوس .. ان العرب من عباد « أبولون » وهوم لا يشعرون . ان العرب لا يمكن أن يفــهموا « ديونيزوس » ، تـلك النشوة الدينية ، الجارفة التي تخرج صاحبهـــا من سيطرة العقل والوعي ، كي تصله مباشرة بالطبيعة .. ان اغاني عباد « باكوس » الحماسية في الغابات ، ومزامير الـــ « ساتير » ، لشيء بعيــد ادراكه على العقلية الفردية ، شعور الانسان في لحظة انه انقلب مخلوقا له جسم جواد وراس رجل او راس رجــل ، وأرجل ماعز .. هذا الاتحاد بين الحيوان والانسان احساس ليس له مثيل الا عند المصريين القــدماء .. هذا التلاقي بين الانواع وبين القوى في مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية تذكرى تلك المخلوقات الالهيــة البائدة التي كانت تحكم الارض قبل ظهور الانسان .. مخلوقات لا هي من الاناث ، ولا هي من الذكور ، لا هي من الحيوان ، ولا هي من الانسان ، ان الاجناس والفصائل م تكن قد فرزت ، كذلك « الســاتير » في « الميتولوجيا » الاغريقية رمز للانسان الاول، الانسان الذاتي من الحيوان ، القريب من الالهة ، يدنــو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة بينبوع القوة الخالقة عند الاغريق والهنود ، كما هي عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعـة الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا

بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحى ، والالهام الذاتى يرى به كتلة الزمن . من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لمحة واحدة ..!

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للانسان الأول ، وفقدناها اليوم .. نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا اياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بهـا ولم يبق لنا اليوم الا العقل المحدود والمنطق المعاصر .. وها نحن أولاء اليوم فى هذا الكون الهائـل مخلوقات منفردة منبوذة .. أين ذهب « ديونيزوس » .. ؟ وهل يبعث من جديد .. ؟ واذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية .. ؟

رجل واحد ما زال يذكر هذا الاله ويستطيع أن يعرفه اذا ظهر كما عرف « غالياس » أصحاب الكهف .. ! وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هـذا العصر ، هذا الغالياس العصرى هو : « تاجور » ..! انه يتكلم كثيرا عن ذلك الاتحاد بين الانسان والطبيعة، وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبـين الحياة العظمى التى تخترق الكون ، وعن ذلك الحب بين الانسان والجماد . هذا كلام جميل ، لكن هـل تراه يشعر بحقيقته .. ؟ يخيل لى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الاغريق ، بل لقد انقضت قبـل ان تنقضى دولة الاغريق .. انقضت بطغيان منطـق « سقراط » على روح « هوميروس » ، انقضت بطرد « ديونيزوس » من « تراجيديات أيروبيد » ، « ... غضبة (نيتشه) المعروفة .. » انقضت بغلبة الاحساس العقلى على الاحساس الروحى .. انقضت بانتصـار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » ..

وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفات الحضارة الاغريقية الى الابد . ولم ترث اوربا منها غير كنوز العقل والمنطق ، وبقيت في الظلام روح « ديونيزوس » الخفية ..

. لم تنجح اليونان اذن النجاح المطلوب في تطعيم الروح بالمادة ، فهل تامل مصر بلوغ هذه الغاية يوما .. ؟

(من رسائل متبادلة مع طه حسين)
عام ١٩٣٣ ــ كتاب تحت شمس الفكر .

الفهـــرس

الصفحة

الشركة الشرقية للنشر والتوزيع
بيروت ـــ لبنان

مطابع الأهرام التجارية